أمن مستقبلك

ورسائل أخرى مهمة

فضيلة الشيخ الدكتور

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

ربَّنا تقبَّلْ منَّا
إنَّكَ أنتَ السَّميعُ العَليمُ

محفوظة
جميع الحقوق

رقم الإيداع ٨٣١٢ / ٢٠٠٥
الترقيم الدولى
977-331-403-0

دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع جليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

فما من نبيّ إلاَّ وبُعث بلسان قومه ليُبيّن لهم، وقد أُمرنا أن نُخاطب الناس على قدر عقولهم، فما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلاَّ كان لبعضهم فتنة، ومن المعلوم أن خطاب الكبير يفترق عن خطاب الصغير، والعالِم يفترق عن الجاهل..

والأسلوب المستخدم في الخطبة يختلف عن أسلوب البحث والتأليف، وكل ذلك يتم دون تغيير أو تبديل ﴿ **قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ** ﴾ [يونس: ١٥]، فما يسع أحداً مصادمة نصوص الشريعة لا في بداية الطريق ولا في نهايته، ولا في الوسيلة والغاية.

وقد يلجأ الإنسان إلى الإجمال تارة وإلى التفصيل تارة

أخرى، ولكل مقام مقال، فأحيانًا تجد العالم يفسر ويوضح مفردات الكلمات ويكتفي بذلك، وأحيانًا أخرى يعقد بحثًا في تفسير الآية كما صنع القرطبي في تفسير آيات الأحكام، فإذا مرّ بآية فيها ذكر البيع أو الربا أو الطلاق.. تكلّم على تفاصيل البيوع والطلاق والربا، مما نجده في كتب الفقه، وكما صنع القاسمي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فقد عقد بحثًا في نحو مئة صفحة في تفسير الآية يتعلق بموضوع الإيمان والكفر، وذلك في كتابه «محاسن التأويل».

والناس يحتاجون لهذا وذاك، وما لا يتناسب مع هذه الفئة قد يتناسب مع الفئة الأخرى، والمهم إبلاغ الحق للخلق، واستفراغ الوسع في العلم النافع والعمل الصالح وتعبيد الدنيا بدين الله، وتضافر الجهود على ذلك، فمن الناس من يصلح للتدريس للمرحلة الابتدائية، ومنهم من يصلح خطابه لطلاب الجامعة، وكلاهما يُسدي نفعًا وخدمة ويسُد ثغرة، وقد لا يستطيع الأول القيام بدور

الثاني، والثاني لا يُحسن في موضع الأول، وحسْب الجميع أن يُخلص عمله لله، و أن يحرص على إتقان مهمته ودوره، ولا يُبالي إن وضعوه في المقدمة أو في المؤخرة، فالسهم الواحد ثلاثة يدخلون به الجنة، والدال على خير كفاعله.

وكل مسلم ينبغي عليه أن يكون له دور في النهوض بواجب الدعوة، سواء بماله أو دعائه، بشعره أو نثره، بخطبته أو درسه، بتعاهده الصغار أو الكبار، بسلوكه وقوله، وينهج في ذلك كله منهج الأنبياء والمرسلين، ويستخدم لذلك الأساليب المباحة والمشروعة كالشريط والكُتيب، والدلالة على الدرس النافع المفيد..

ودور المسلم لا ينبغي أن يقل عن دور الهدهد الذي أتى نبيّ الله سليمان عليه السلام يقول له: ﴿ **أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ** ﴿٢٢﴾ ﴾ [النمل: ٢٢]، فهو في طيرانه بحثًا عن الماء لا ينسى دعوته، وكذلك أنت لا تنسَ وظيفتك الحقيقية في إبلاغ دين الله، حتى وإن كنت طبيبًا أو مهندسًا أو عاملاً أو طالبًا.

ولعل الله أن يبارك في دعوتك حتى وإن كنت مغموراً، كما بورك في دعوة صاحب يس، وأصحاب الكهف، ومؤمن آل فرعون، وعبد الله الغلام، ولا تحقرن من المعروف شيئًا، ورُبّ مُبلّغ أوعى من سامع، ورُبَّ حامل فقه ليس بفقيه، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ولأن يهدي اللهُ بك رجلاً واحداً خير لك من حُمر النعم.

ولا يليق بك مع علو همتك أن تبذل لدعوتك فتات وقتك، فالليل والنهار يصلح مجالاً للدعوة، وأقل القليل يُحدث أثرًا بفضل الله، ونحن لا نحرث في البحر، ولا نُؤذن في مالطة أو في خرابة؛ فالاستجابة تفوق الخيال، وإقبال الناس على طاعة ربهم يحفز النفوس الهامدة على بذل الوسع.

وقد رأيت أن أصنع ما صنعه بشر الحافي في تبسيط الوعظ القديم عندما قال: إن في هذه الدار نملة تجمع الحب في الصيف لتأكله في الشتاء، فبينما هي في يوم من الأيام، إذْ أخذت بفمها حبة وجاءها عصفور، فأخذها هي والحبة، فلا ما جمعت أكلت ولا ما أمّلت نالت.

وهذا مثال للموت الذي يأتي بغتة، وقد أُمرنا بالإكثار من ذكره، وإذا كان البعض يصف شيخ الإسلام ابن تيمية بأنه رجل خاصة، وابن القيم بأنه رجل عامة، فأين دورك أنت وخصوصًا ودعوتك دعوة عالمية، لا تقتصر على الملتحين والمنقبات، ولا على حيز المسجد ولا على الخطبة والدرس، ونحن نريد العودة بالنفس وبالأمة من حولنا لمثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، فكان لابد من الارتفاع لمستوى هذه الدعوة المباركة واغتنام كل الفرص وتوجيه الدعوة لكل الفئات والطبقات.

وقد طرحتُ ما يُقارب المئة عنوان، تصلح للخطبة والدرس والوعظ والتذكير، وكان الغرض في البداية نزولها كمطويات مختصرة لا كأبحاث مطوّلة، وقد لاقت رواجًا وقبولاً بفضل الله، ولكن ظهرت الصعوبة – مع هذا العدد الكبير – في الطبع والتوزيع والنشر؛ ولذلك رأينا وضع هذه العناوين في مجلدات صغار عساها تؤدي نفس الفائدة والغرض.

والله نسأل أن ينفعنا وإياكم بها ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ

﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٨] وما كان فيها من صحة وصواب فمن الله، وما كان فيها من خطأ وقصور فمن نفسي ومن الشيطان، والله منه بريء، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

سعيد عبد العظيم

يغفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

أمن مستقبلك

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد :

فالخوف من المستقبل ومحاولة تأمينه، قاسم مشترك بين المسلم والكافر والبَر والفاجر، والمرأة والرجل، والكبير والصغير، ولما كان السلوك مرآة الفكر، وكل إناء بما فيه ينضح فقد افترق المسلم عن غيره.

فللمسلم شأن وللناس شأن، وقد كان للغربة والجهالة التي نعيشها أثرها الكبير في انحراف التصورات والتصرفات تبعًا لذلك، حتَّى صار البعض كالمستجير من الرمضاء بالنار، أو كالعير بالبيداء يقتله الظمأ، والماء فوق ظهوره محمول، نُداوي الداء بداء آخر ونطلب الأمن من مكمن الخطر، وننشد نتائج لم نأخذ بمقدماتها.

وإليك بعض هذه النماذج والصور:

[١] إضاعة النساء بزعم تأمين المستقبل لهن:

نزعم الشفقة والحب لبناتنا والقيام على مصلحتهن، وقد يتقدم الرجل للزواج فيتم السؤال عن عمله وراتبه ومسكنه.. وقد نقبله زوجًا ونحن لا ندري شيئًا عن عقيدته، وهل يصلي أم لا، وقد يكون مخموراً مقامراً، وتثور بعد ذلك المشاكل والخلافات، وإذا قيل للولي لماذا لم تسأل عن ديانة زوج ابنتك، يقول: خجلت !! وهو لم يخجل عندما سأل عن الماديات!!.

ومن المعلوم أنَّ من زوَّج ابنته من فاسق فقد قطع رحمها، وكانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول: النكاح رق، فلينظر أحدكم عند من يسترق كريمته، فالكفاءة يُنظر فيها أول ما يُنظر إلى الديانة والصلاح والحرص على طاعة الله وتعظيم حرمات الله.

وكيف نأتمن تارك الصلاة على زوجة وأولاد؛ كان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يبعث لولاته ويقول لهم: ألا إنَّ أهم أموركم عندي الصلاة، ألا إنه لا حظَّ في الإسلام لمن ضيّع

الصلاة. ويقول: من ضيعها فهو لما سواها أضيع.

وسُئل الحسن: من أُزوّج ابنتي، فقال: زوِّجها التّقيّ النَّقي فإنه إن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يُهنها.

ومن صور الإضاعة السماح للبنات بالخروج متبرجات، يختلطن بالشباب في المدارس والجامعات، وأماكن العمل، وقد تستحث الأم ابنتها على إقامة علاقات مع الرجال طلبًا للزواج!! وقد تصل العلاقات المحرمة – والتي يسميها البعض صداقة وزمالة – إلى حد المعاشرة الزوجية أثناء الخطوبة وقبلها، ويتم ذلك بمباركة أهل المرأة أحيانًا، بزعم جريان العُرف بذلك!! أو حتَّى تنشأ المعرفة والحب قبل الزواج..

لقد أمر الشرع بالمباعدة بين الرجال والنساء حتَّى في أماكن العبادة؛ فالمرأة تطوف بالكعبة من خلف صفوف الرجال، وخير صفوف الرجال أولها، وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها، وما ترك النَّبيُّ ﷺ فتنة أضر على الرجال من النساء، والمرأة مأمورة بالصيانة والتحفظ والتحجب والتستر، والتباعد عن مواطن التهم والريب والشكوك.

قال تعالى: ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ** ﴾ [الأحزاب: ٣٣] قيل: كانت المرأة تسير مسفحة بصدرها وسط الرجال، أو أنها كانت تظهر خصلة من خصلات شعرها.

وقال تعالى: ﴿ **وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا** ﴾ [النور: ٣١].

وقال جلَّ وعلا: ﴿ **وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ** ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

ومن هنا تدرك خطورة دعوات تحرير المرأة ومحاولات جر المرأة المسلمة للتشبه بالمرأة الغربية، وما تنطوي عليه هذه المحاولات من إشاعة الفسق والفجور والتحلل في جسد هذه الأمة بزعم المحافظة على حقوق المرأة!! أو السعي في إيجاد مستقبل مشرق وغدٍ آمن لها!! .

إنَّ فشل الكثير من حالات الزواج سببه هذه المقدمات الفاسدة، فلكل مقدمة نتيجة، ومعظم النار من مستصغر الشرر، والخطوبة مجرد وعد بالزواج والعلاقة فيها، علاقة

أجنبي بأجنبية، وطالما رآها وأعجبته، ورأته وأعجبها، عادت الحرمة كما كانت، والمرأة تُطلب من وليها، ولا يصح أن يُتاجر بها، أو أن تُصبح سلعة معروضة ولا يجوز أن يُستخف بعقلها، بحيث تصبح فتنة لنفسها، وفتنة لغيرها، والله يعلم وأنتم لا تعلمون، فاستسلموا لحكمه سبحانه، واعملوا بشرعه يتحقق لكم الخير في العاجل والآجل.

[٢] التأمين على الحياة وتعاملات ربوية تأميناً للمستقبل!!:

انتشرت شركات التأمين هنا وهناك لما آنست من الخلق الخوف على المستقبل، وقد ذهب أكثرية علماء مجلس المجمع الفقهي المنعقد بمكة المكرمة إلى أنَّ التأمين حرام بجميع أنواعه، سواء كان على النفس أو البضائع التجارية أو العقارات، أو على جزء من الإنسان كالحنجرة أو الساقين أو العينين وسواء كان ضد الحريق أو الحوادث...

وذلك لما ينطوي عليه من ربا وقمار وغرر، وهذا هو الذي ورد في فتاوى دار الإفتاء المصرية، وأجازوا التأمين التعاوني؛ لأنه من عقود التبرع ولخلوِّه من الربا، ولكونه من

صور التعاون التي لا مخاطرة ولا غرر ولا مقامرة فيه.

ورغم حرمة التأمين التجاري إلاَّ أنه قد عمَّت به البلوى وأصبح من لوازم الحياة عند الكثيرين !!، وقريب من ذلك ما يفعله الآباء عندما يضعون الأموال في البنوك الربوية – على جهة التربح – لضمان مستقبل الصغار، ولا ندري كيف يُبارك في الحرام، والربا من شأنه أن يستمطر اللعنات والنقم على البلاد والعباد، قال تعالى: ﴿**يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ** (٢٧٦)﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** (٢٧٨) **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩]، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ: «**لعن آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه**» [رواه البخاري ومسلم].

[٣] حصون المستقبل دمرها الكفر والانحراف:

كان قوم نوح وعاد وثمود، وقوم لوط وأصحاب مدين والفراعنة... من أصحاب الحضارات الزائفة التي أُقيمت على أساس العبودية لغير الله، وآثارهم تدل على حرصهم

على تأمين المستقبل، فكانوا ينحتون من الجبال بيوتًا فارهين ويبنون المصانع لعلهم يخلدون، أقاموا الأهرامات والمسلات والقصور، فما الذي آل إليه أمرهم، يقول تعالى: ﴿ **فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ** ﴾ [القصص: ٥٨].

وما سبب الدمار الذي نزل بساحتهم؟!! إلاَّ الكفر والضلال، يقول تعالى: ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾** ﴾ [الطلاق: ٨، ٩]، وقال سبحانه: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾** ﴾ [الإسراء: ١٦].

وإذا كان على مستوى الأفراد نجد من يرتشي ويسرق ويغش لتأمين مستقبله ومستقبل عياله، فعلى مستوى الدولة نجد استيراد النظم والدساتير والمناهج الكفرية بزعم مواكبة تطور الحياة والأخذ بأسباب التقدم والتحضر!! وإيجاد المستقبل الآمن للأجيال القادمة، وما هي إلاَّ مزاعم؛

فالمعصية سبب كل شر ودمار، وما نزل بلاء إلاَّ بذنب، وما قيمة دنيا تأتي على حساب الدين، بل الحياة بأسرها لا تصلح عوضًا عن معنى من معاني الإيمان.

وكيف نأمن على أنفسنا وقد ضيعنا ديننا، وهل نستطيع أن نُحصن أنفسنا أمام زلزال مدمر، وما الذي فعلته أمريكا أمام إعصار أندرو، وفيضان المسيسبي؟! يقول تعالى: ﴿ **أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)** ﴾

[الأعراف: ٩٧ – ٩٩].

نضيع حاضرنا ومستقبلنا بالكفر بخالق الأرض والسماوات وبعدم تحكيم شريعته سبحانه، وبإقامة الاقتصاد على أساس ربوي أو شيوعي، لقد حكى لنا القرآن عن فرعون، وكيف قال لأهل مصر ﴿ **أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي** ﴾ [الزخرف: ٥١]، وادَّعى الربوبية والألوهية مع الله، واستخفَّ قومه فأطاعوه، وأظهر التخوف من دعوة نبيّ الله موسى عليه السلام فقال: ﴿ **إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ**

دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) ﴾ [غافر: ٢٦].

وتجاوب الملأ مع فرعون فقالوا له: ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

فأين هو الآن؟! قال تعالى: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ [غافر: ٤٦] ثم هو يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود، فأين المستقبل الآمن الذي أقامه فرعون لنفسه ولشعبه؟!.

الأمان الحقيقي في العمل بطاعة الله:

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لسعد بن وهيب خال النَّبي ﷺ وصاحبه: يا سعد ليس بينكم وبين الله نسب، أنتم عباده، وهو ربكم، تنالون ما عنده بطاعته، فما عند الله من خير وبركة وسعة رزق وأمن وأمان لا ننناله إلاَّ باستقامتنا على شرع الله.

وكان عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - يقول: «إنَّ الأمان غداً لمن باع قليلاً بكثير، ونافذاً بباق، ألا ترون أنكم

في أسلاب الهالكين، وسيخلفها من بعدكم الباقون، وكذلك حتَّى تُردوا إلى خير الوارثين، ألا ترون أنكم في كل يوم وليلة تشيعون غاديًا ورائحًا إلى الله قد خلع الأسلاب، وفارق الأحباب ووُجه للحساب غنيًا عما ترك، فقيرًا إلى ما قدم».

إن الخوف على مستقبل ذريتك يدفعك دفعًا لتقوى الله، قال تعالى: ﴿ **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٩)** ﴾

[النساء: ٩].

فلا تجمع لمن لا يرحمك، ومن السفه أن تُضيع دينك بدنيا غيرك، وأنت غداً تقدم على من لا يعذرك، ويُؤخذ المال منك كله، وتُسئل عنه كله واعلموا أنه لن تموت نفس حتَّى تستكمل رزقها وأجلها؛ فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣)** ﴾ [الفرقان: ٦٣]، ﴿ **وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢)** ﴾ [الذاريات: ٢٢]، فتوكل على الله حق توكله.

كان حاتم الأصم يقول : «علمت أنَّ رزقي لن يأخذه غيري، فاطمأنت بذلك نفسي» فلا داعي للخوف الفاجع.

وكان الحسن يقول : «عباد الله، الموت في رقابكم والنار بين أيديكم، فتوقعوا قضاء الله في كل يوم وليلة، لقد فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذي لُبٍ فرحًا، وإن أمرًا هذا الموت آخره لحقيق أن يُزهد في أوله، وإن أمرًا هذا الموت أوله لحقيق أن يُخاف من آخره، ولئن تصحب أقوامًا يخوفونك حتَّى تدرك أمنًا خير لك من أن تصحب أقوامًا يؤمنونك حتَّى تدركك المخاوف».

الحياة تمتد أمامنا زمانًا ومكانًا، زمانًا لأبد الآبدين، ومكانًا لجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ونحن سننتقل حتميًا من حياة دنيوية إلى حياة برزخية إلى حياة أخروية، ولا سبيل لتحقيق الأمن والأمان هنا وهناك إلاَّ بالعمل بطاعة الله ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٢] فهيا بنا نُعمّر الدنيا بطاعة الله، ونقيم حضارة على منهاج النبوة، ونؤمن المستقبل باستقامة لا عوج فيها.

ما الذي تركه الصالحون لأولادهم ؟

إذا وسعك الأمر فاترك لأولادك شيئًا، فقد قال النَّبيُّ ﷺ لسعد بن أبي وقّاص عندما همَّ أن يتصدق بكل ماله: «**إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير لك من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**» [رواه البخاري ومسلم].

وقال النَّبيُّ ﷺ لكعب بن مالك: «**أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك**» [رواه البخاري ومسلم]، وإن لم يسعك فاطمئن ولا تحزن، فالرب كريم، يرزق الحيتان في بحورها والنمل في جحورها والطير في سمائه، هو سبحانه الذي حفظ موسى عليه السلام في اليم، وفي قصر الفرعون، وقال لأمه: ﴿**فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧**﴾ [القصص: ٧] وحفظ هاجر وإسماعيل في هذه الصحراء القاحلة، ومن ظن أنَّ الله يضيع أولياءه فقد ظنَّ السوء برب العزة جلَّ وعلا.

ولم يورث الأنبياء أولادهم شيئًا، وما تركوه صدقة، ولذلك لم يعط أبو بكر السيدة فاطمة شيئًا مما تركه رسول الله ﷺ، ومعنى قول نبيِّ الله زكريا عليه السلام: ﴿**يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦**﴾ [مريم: ٦]

ليست وراثة مال، وإنما وراثة علم وصلاح؛ فالأنبياء إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر.

وقد تصدَّق أبو بكر ﷺ بكل ماله، ولما قيل له ما تركت لأولادك قال: تركت لهم الله ورسوله، فما ضاعوا، وما خابوا، ورفض عمر ﷺ تولية ابنه عبد الله الخلافة من بعده، ولو تولاها لكان لها خليقًا وبها جديراً، ولم ينظروا للإمارة على أنها تشريف ومغنم.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا** ﴾ [الكهف: ٨٢] قال العلماء: حفظ الأبناء بصلاح الآباء، فاحفظ الله يحفظك في نفسك وولدك، وكان سعيد بن المسيب يطيل في صلاته، ويقول لابنه: والله إني لأطيل في صلاتي رجاء أن أُحفظ فيك، ويتلو قوله تعالى: ﴿ **وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا** ﴾.

قصة ذات مغزى:

لما كان المرض الذي مات فيه عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – دخل عليه مسلمة بن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين، إنك أفقرت أفواه ولدك من هذا المال، وتركتهم عيلة لا شيء لهم، فلو وصيت بهم إليَّ وإلى نُظرائي من أهل بيتك.

قال هشام : فقال عمر: أسندوني. ثم قال: أما قولك : إني أفقرت أفواه ولدي من هذا المال، فوالله ما منعتُهم حقًا هو لهم، ولم أعطهم ما ليس لهم، وأما قولك : لو أوصيت بهم، فإن وصيَّتي ووليّ فيهم الله الذي نزَّل الكتاب وهو يتولى الصالحين.

بنيَّ أحد الرجلين: إما رجل يتقي الله فسيجعل الله له مخرجًا، وإما رجل مُكبّ على المعاصي، فإني لم أكن أقويه على معاصي الله.

ثم بعث إليهم وهم بضعة عشر ذكرًا قال: فنظر إليهم فذرفت عيناه ثم قال: نفس الفتية الذين تركتهم عيلة (فقراء) لا شيء لهم، فإني بحمد الله قد تركتهم بخير، أي بُنيّ إنَّ أباكم مَثُلَ بين أمرين: بين أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار، أو تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة، فكان أن تفتقروا ويدخل الجنة أحبَّ إليه من أن تستغنوا ويدخل النار، قوموا عصمكم الله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

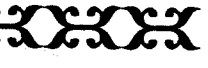

أو لم يتفكروا

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد :

فما طالت فكرة امرئ قط إلاَّ علم، وما علم امرؤ قط إلاَّ عمل، ولو تفكّر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عزَّ وجل، والفكر مرآة تُريك حسناتك وسيّئاتك، ولذلك كان التفكّر من أفضل العبادات، فهو يورث الحكمة ويُحيي القلوب، ويغرس فيها الخوف والخشية من الله عزَّ وجل.

مرَّ رجل براهب عند مقبرة ومزبلة، فناداه، فقال: يا راهب، عندك كنزين من كنوز الدنيا، لك فيهما مُعتبر، كنز الرجال، وكنز الأموال.

وقال أبو سليمان الداراني: «إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلاَّ رأيت لله فيه نعمة، ولي فيه عبرة».

ولما سُئلت أم الدرداء عن أفضل عبادة أبي الدرداء؟ قالت: التفكر والاعتبار.

وعن محمد بن كعب القرظي، قال: لأن أقرأ في ليلتي حتَّى أصبح بإذا زلزلت والقارعة، لا أزيد عليهما، وأتردد فيهما وأتفكّر أحبُّ إليَّ من أن أهُذَّ (القراءة بسرعة) القرآن ليلتي هَذًّا، أو قال: أنثره نثرًا.

وعن طاوس قال: «قال الحواريون لعيسى بن مريم عليه السلام: يا روح الله، هل على الأرض اليوم مثلك؟ فقال: نعم من كان منطقه ذكرًا، وصمته فكرًا، ونظره عبرة، فإنه مثلي».

والتفكر يكون في نعم الله وفي كل شيء إلاَّ في ذات الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ [الشورى: ١١].

وقد كثر الحثّ في كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩)﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)﴾ [الأنعام: ٥٠]،

وقال: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨)﴾ [الروم: ٨].

وعن عطاء قال: دخلتُ أنا وعبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها، فقالت لعبيد بن عمير: قد آن لك أن تزورنا، فقال: أقول يا أمه كما قال الأول: زُرْ غبًا تزدد حبًا، قال: فقالت: دعونا من رطانتكم هذه. قال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ، قال: فسكتت، ثم قالت: لما كانت ليلة من الليالي، قال: «**يا عائشة، ذريني أتعبد الليلة لربي**» قلتُ: والله إني لأحب قُربك، وأحب ما سرَّكَ، قالت: فقام فتطهّر، ثم قام يُصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتَّى بلَّ حجره. قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتَّى بلَّ لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتَّى بلّ الأرض، فجاء بلال يُؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي، قال: يا رسول الله، لمَ تبكي وقد غفر الله لك ما تقدَّم وما تأخر، قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً، لقد نزلت عليَّ الليلة آية، ويلٌ**

لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠)﴾

[آل عمران: ١٩٠].

ومن السبعة الذين يُظلهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلاَّ ظله **«رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»**

[رواه البخاري ومسلم].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «صلَّيتُ مع النَّبيّ ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلتُ يركع عند المئة، ثم مضى، فقلت: يُصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوّذ تعوّذ، ثم ركع، فجعل يقول: «**سبحان ربي العظيم**»، فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: «**سمع الله لمن حمده**» ثم قام طويلاً، قريبًا مما ركع، ثم سجد، فقال: «**سبحان ربي الأعلى**» فكان سجوده قريبًا من قيامه» [رواه مسلم].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**اقرأ عليَّ القرآن**»، قال: فقلت: يا رسول الله، أقرأ

عليك وعليك أُنزل؟!. فقال: «**إني أشتهي أن أسمعه من غيري**» فقرأت النساء حتَّى إذا بلغت: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١] رفعتُ رأسي - أو غمزني رجل إلى جنبي فرفعت رأسي - فرأيت دموعه تسيل» [رواه البخاري ومسلم].

والسُّنن كثيرة في هذا المعنى، وكلها دالة على ما كان عليه النَّبيّ ﷺ من تفكُّر وتدبّر.

وعن الحسن قال: «تفكُّر ساعة خير من قيام ليلة».

وقيل: «كان لقمان يُطيل الجلوس وحده، فكان يمر به مولاه، فيقول: يا لقمان، إنك تُديم الجلوس وحدك، فلو جلست مع الناس كان آنس لك، فيقول لقمان: إنَّ طول الوحدة أفهم للفكر، وطول الفكر دليل على طريق الجنة».

وعن عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - أنه بكى يومًا بين أصحابه، فسُئل عن ذلك، فقال: «فكّرتُ في الدُّنيا ولذَّاتها وشهواتها، فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تنقضي حتَّى تكدرها مرارتها، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر إنَّ فيها مواعظ لمن ادَّكر».

وأنفع الفكر، الفكر في الآخرة، وفي آلاء الله ونعمه، وأمره ونهيه، وطرق العلم به وبأسمائه وصفاته، وهذا الفكر يُثمر لصاحبه المحبة والمعرفة، فإذا فكَّر في الآخرة وشرفها ودوامها، وفي الدنيا وخسّتها وفنائها، أثمر له ذلك الرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا، وكلما فكّر في قصر الأمل، وضيق الوقت أورثه ذلك الجد والاجتهاد، وبذل الوسع في اغتنام الوقت.

أما الفكر في الدنيا وفيما لا يعني فهو باب كل شر، وكذلك الفكر فيما لم يُكلف الفكر فيه، كالفكر في كيفية ذات الرب مما لا سبيل للعقول إلى إدراكه، ومن كان في خواطره ومجالات فكره دنيئًا خسيسًا لم يكن في سائر أمره إلاَّ كذلك.

قال مُغيث الأسود: «زوروا القبور كل يوم تُفكركم، وشاهدوا الموقف بقلوبكم، وانظروا إلى المنصرف بالفريقين إلى الجنة أو النار، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامها وأطباقها».

والصيام من جملة الأسباب المعينة على التفكر، ومن

هنا قال البعض: إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

والإنسان بحاجة لأن يقف مع أول همة، فإن كان لله أمضاه، وإن كان لغيره توقّف، والرويّة في كل أمر خير إلاّ ما كان من أمر الآخرة، قال الشافعي: فكّر قبل أن تعزم، وتدبّر قبل أن تهجم، وشاور قبل أن تُقدم.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول لأصحابه: أنتم في زمان خيركم المسارع في الأمر، وسيأتي على الناس زمان خيرهم المتوقف المتثبت لكثرة الشبهات.

وبعد أن علمت قيمة التَّفكر، وما ورد بشأن ذلك من آيات وسُنن وآثار، حريٌّ بك أيها الغادي أن تقف ساعة وتتفكر، من أنت، ومن خلقك، وإلى أين المصير، أراحل أنت أم مُقيم، وإذا كنت مرتحلاً فإلى أين أإلى جنَّة أم إلى نار؛ فالحياة بغير الله سراب، يحسبه الظمآن ماءً حتَّى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب.

تفكّر في الموت والقبور والآخرة، كان الإمام أحمد -رحمه الله- يقول: من لم يردعه ذكر الموت والقبور

والآخرة، فلو تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع. تفكّر فأنفاسك تُعد، ورحالك تُشد، وعاريتك تُرد، والتراب من بعد ذلك ينتظر الخد وعلى أثر من سلف يمشي من خلف، وما عقبى الباقي غير اللحاق بالماضي، وما ثمَّ إلاَّ أمل مكذوب وأجلٌ مكتوب ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

جلس عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - يومًا متفكرًا متأملاً، ثم قال: «قبور خرَّقت الأكفان، ومزَّقت الأبدان، مصَّت الدم، وأكلت اللحم، ترى ما صنعت بهم الديدان، محت الوجوه، وكسّرت الفقار، وأبانت الأشلاء، ومزَّقت الأعضاء، ترى أليس الليل والنهار عليهم سواء؟، أليس هم في مدلهمّة ظلماء؟، كم من ناعم وناعمة أصبحت وجوههم بالية وأجسادهم عن أعناقهم نائية، قد سالت الحدق على وجوههم دمًا وصديداً، ثم لم يلبثوا والله إلاَّ يسيراً، حتَّى عادت العظام رميمًا، ثم قال: ليت شعري، كيف ستصبر على خشونة الثرى، وبأي خدّيك سيبدأ

البلى. وقال: يا ساكن القبر غداً، ما الذي غرَّك من الدنيا؟، أين دارك الفيحاء؟! بل أين رقاق ثيابك ؟!».

تفكّر في أحوال المسلمين، فإنَّ من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، واجعل الهموم همًا واحداً، هو همّ الآخرة، وقد يطول بك العجب عندما ترى انشغالك بكرة القدم، أو بالسينما والمسرح، أو بالأغاني العربية والأجنبية، أو بمتابعة الموضات.. في الوقت الذي تجري فيه المذابح الجماعية للمسلمين هنا وهناك، والكثرة منهم لا تجد رصيفاً آمناً تسكنه.

تفكّر فربما تشكر النعمة التي تعيشها وتنتهي عن البطر، وربما تستحي عندما ترى تقصيرك وتفريطك، والحياء والإيمان قُرناء جميعًا، فإذا رُفع أحدهما رُفع الآخر، وربما تداركت قبل فوات الأوان، فأعداء الأمس هم أعداء اليوم، وهم لا يُفرقون بين مسلم وآخر، ﴿ **قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ** ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وما صرنا كاليتيم على موائد اللئام إلاَّ بسبب حب الدنيا، وكراهية الموت، ومن كانت الدنيا همّه فرَّق الله عليه

شمله وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلاَّ ما كُتب له، و من كانت الآخرة نيَّته ، جمع الله له شمله وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة.

تفكَّر كيف نُحقق معنى الأخوة الإيمانية، والوحدة الإسلامية، فهذه مهمتك قبل غيرك، وأنت على ثغر من ثغور الإسلام؛ فاحذر أن يُؤتى الإسلام من قبلك، لن تعدم دعوات صالحات في جوف الليل، وسهام الليل لا تخطئ، عسى الله أن يؤلف بين قلوب المسلمين ويوحّد كلمتهم، ويجعل بأسهم على عدو الله وعدوهم.

لا تتنصل من تحمل المسئولية ﴿ **فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾** ﴾ [الأعراف: ٦]، ﴿ **لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ** ﴾ [الأحزاب: ٨].

تفكّر في نفسك وفي عظيم نعمة الله عليك ﴿ **وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾** ﴾ [الذاريات: ٢١]، وكفى بنعمة الإسلام نعمة، فهل أدَّيت شكر هذه النعم.

تزوّد بالعلم النافع، وتابعه بعمل صالح، واحرص على تقوية معاني العقيدة في نفسك؛ فالحرب مع أعداء

المسلمين حرب عقائدية، واعلم أن لا سبيل لأن تكون من الطائفة الظاهرة الناجية المنصورة إلاَّ بأن تكون على مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، فهل تحققت بهذا المنهج الإيماني، علماً وعملاً واعتقاداً، لا ريب أنه إذا ذُكرت أحوال السلف بيننا افتضحنا كلنا، ولكن هذا لا يمنع من أن نبدأ ونُجاهد أنفسنا ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** (٦٩) ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وكما قالوا مسيرة آلاف الأميال تبدأ بخطوة واحدة، وربنا يلوم على العجز، فاستشعر أنه لا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله، وليكن سبيلك التخلية عن الرذائل قبل التحلية بالفضائل، واحذر أن تُحدث أنت الثقب في قعر السفينة، فهذا يساوي غرقها بجميع ركابها في قعر المحيط، فالمعاصي هلكة ودمار، ومعصية الجيش أضرّ عليه من سيوف أعدائه.

إنَّ التفكر في ملكوت السموات والأرض من شأنه أن يهدي الحيارى، ففي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد.

تأمل كيف رفع السماء فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها.

تأمل عجيب قدرة الله في خلقه، وكيف يسير الكون في نظام دقيق ﴿ **لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** (٤٠) ﴾ [يس: ٤٠].

وتأمل وتفكّر في دعوة سيد الأولين والآخرين، فمعجزاته كثيرة طبية وفلكية وحكمية وبلاغية... وأعظمها معجزة القرآن الكريم، كل شيء يدل على نبوته ﷺ، أخلاقه، أمته، الأخبار الغيبية، الدعاء المستجاب، ما هو موجود بأيدي أهل الكتاب... ﴿ **أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ** (١٨٤) ﴾

[الأعراف: ١٨٤].

تدبر ذلك تزداد إيمانًا ويقينًا بعظمة هذا الدين، ولا تملك معه إلاَّ أن تدعو وتقول: رب توفَّني مسلمًا وألحقني بالصالحين.

اللهم اجعل صمتنا فكرًا ونطقنا ذكرًا ونظرنا عبرًا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

خذوا ما أتيناكم بقوة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد :

فالقوة من مظاهر الرجولة الحقة، وهي حال الأنبياء والمرسلين، ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين، فالثبات على دين الله، والصدع بكلمة الحق في مواجهة الطغاة والطواغيت هو شأنهم، ووجود واحد من هذه العيّنة القويّة خيرٌ من بقاء طوابير طويلة تعطي الكفرة الفجرة ما يطلبونه وما يريدونه ولو بالقول، وهذه القوة تُثمر محبة الله ورضاه، وقد أمر بها سبحانه في كتابه وعلى لسان نبيّه ﷺ.

قال تعالى: ﴿ **يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ** ﴾ [مريم: ١٢] أي بجد وحرص واجتهاد، وأمر بها نبيّ الله موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿ **وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا**

سأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وأُمر بها بنو إسرائيل: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣] قال مجاهد: بقوة أي بعمل ما فيه، وهي الطاعة والجد أيضاً.

وهذا للأسف عكس ما هو واقع في حياتنا وحياة الناس، وكأننا لم نأخذ درساً، فالأزمات والنكبات وتسلط الأعداء على رقاب البلاد يتطلب قوّة إيمان وعمق يقين، وهذا هو المخرج من الفتنة، فلا ملجأ ولا منجا من الله إلاّ إليه، ولا عاصم من أمر الله إلاّ من رحم، ولكننا نأبى إلاّ أن نكون كالمستجير من الرمضاء بالنار، أو:

كالعير بالبيداء يقتله الظما والماء فوق ظهوره محمول

نزداد عصياناً وتفريطاً في دين الله، ونُبدل مفهوم الولاء والبراء، ونُغيّر شرع الله في مناهج التعليم والإعلام وفي حياتنا الخاصة والعامة؛ إرضاءً لأعداء الإسلام والمسلمين، فنزداد بذلك ضعفاً على ضعفنا ويزدادون هم طغياناً على طغيانهم، وكأنه لا سبيل عندنا للخروج من الواقع السيّئ والأخذ بأسباب القوة الحقيقية، وردع الأعداء عن غيّهم وضلالهم.

لقد كان المشركون، إذا ركبوا في الفُلك دعوا الله مُخلصين له الدين، يقذفون أصنامهم في البحر ويقولون: يا رب، والبعض منَّا تنزل به الشدَّة فيتعلق قلبه بالمخلوقين، بل بأعدائه، وكأنَّ الذئاب يُطلب منها رعاية الغنم !!!، أيهدونكم وقد أضلهم الله؟!، أيكرموكم، وقد أذلهم الله؟! ﴿ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ [آل عمران: ١١٩].

إنَّ القوة لا تُطلب من الخلق، فكلهم ضعيف حتَّى وإن كان مسلمًا، فكيف ننشدها من أعدائنا، وقد بدت البغضاء من أفواههم، وما تُخفي صدورهم أكبر.

لقد كان بنو إسرائيل مُستضعفين في الأرض، وكان فرعون يدَّعي الربوبية والألوهية، ويُذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويستخدمهم في أعمال السخرة، فما أمروا بخنوع أو باستمراء المهذلة والمهابة، أو بتكريس الواقع السَّيِّئ المؤلم، أو بتغيير المفاهيم الإيمانية، أو بتحليل الحرام وتحريم الحلال كما يطالب البعض ويفعل آخرون، وإنما قيل لهم: ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾.

إنَّ القوة الحقيقية تحدث عندما نصل الأرض بالسماء،

والدنيا بالآخرة، وتتعلق القلوب بالقويّ المتين، فقوة الله فوق كل شيء ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ [هود: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٤٠]، وقال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١].

وقد أمرنا سبحانه بإعداد العدَّة والأخذ بأسباب القوّة كائنة ما كانت، معنوية كانت أو ماديَّة، فقال جلَّ وعلا: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وفي الحديث: «**ألا إنَّ القوة الرمي**» [رواه مسلم].

وأعظم صور القوة قوَّة الإيمان واليقين، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز**» [الحديث رواه مسلم].

وكان رسول الله ﷺ قلَّما يقوم من مجلس حتَّى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: «**اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تُبلغنا به**

جنتك، ومن اليقين ما تُهوّن به علينا مصائب الدنيا، ومتّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منّا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا، ولا تُسلط علينا من لا يرحمنا» [رواه الترمذي وحسَّنه الألباني].

قد يتسلط الكفار على ديار المسلمين، فتجد البعض يرجف ويخذل، ويُهوّل من قوّة الأعداء، ويهوّن من شأن المسلمين، وهذا من ضعف الإيمان وتلاعب الشيطان بهؤلاء: ﴿ **إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** (١٧٥) ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ولهؤلاء يُقال: ﴿ **وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾ [النساء: ٨٣].

وقد تنقلب الموازين ونُصبح كالأسد الهصور في التعامل مع الصالحين، وكالنعامة في مواجهة الأعداء الكافرين، قال تعالى: ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الفتح: ٢٩]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان

أهل الحديبية أشدَّاء على الكفار، أي غلاظ عليهم، كالأسد على فريسته .

وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفًا على الكفار، رحيمًا برًا بالأخيار، عبوسًا غضوبًا في وجه الكافر، ضحوكًا بشوشًا في وجه أخيه المؤمن، كما قال ابن كثير.

وكان النَّبيّ ﷺ يصبر على الأذى فيما يتعلق بحق نفسه، وأما إذا كان لله تعالى فإنه يمتثل فيه أمر الله من الشدة، وهذه الشدة مع الكفار والمنتهكين لحدود الله خير رادعٍ لهم، وفيها تحقيق للأمن والأمان .

ومن نظر في السُّنن والسِّير وطالع قصص الأنبياء والمرسلين لوجد أنَّ القوة في الأخذ بدين الله، وفي مواجهة الكافرين، والدعوة إلى الله رب العالمين، سمة واضحة في حياتهم، فهذا نبيّ الله نوح دعا قومه ليلاً ونهارًا وسرًا وعلانية، قيل كان يدخل لهم في بيوتهم لدعوتهم، أدماه قومه، وكان يُغمى عليه، فإذا أفاق قال لهم: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، واستمر يدعو ألف سنة إلاَّ خمسين عامًا، وفي النهاية ما آمن معه إلاَّ قليل، فهل فتر أو ضعف، أو ترك

الدعوة؟! كلا، وأُمر بصنع السفينة، فصنعها على اليابسة، وكان يعلم أنَّ الله مجريها ومرساها ﴿ **وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨)** ﴾ [هود: ٣٨].

وهذا نبيّ الله إبراهيم عليه السلام يكسر الأصنام، ويدعو أباه، ويواجه قومه، ويُناظر النمروذ – الذي امتلك الدنيا –، ويُسكن هاجر وولده إسماعيل هذا المكان القفر، ويهم بذبح ولده نزولاً على أمر الله، ويرتحل هنا وهناك، ويقول: ﴿ **إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩)** ﴾ [الصافات: ٩٩]، مُجاهداً في سبيل الله حقَّ الجهاد، غير هيَّاب ولا وجل من قوّة أرضية مادية ، ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١)** ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

وهذا نبيُّ الله موسى عليه السلام يواجه فرعون – الذي ادَّعى الربوبية والألوهية مع الله – ويُناظر السحرة – قيل كانوا سبعون ألف ساحر – واضطر للخروج إلى مدين –وهناك كانت قصته مع شعيب وابنتيه – وهو القوي في دين الله

هنا وهناك، فخروجه من مصر خائفًا يترقب، قد تمهّدت أسبابه، فلم يكن جُبنًا مذمومًا، وقد بدت عليه ملامح القوّة الحقيقية، وهو يوقع حاجته بالله ويقول: ﴿ **رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١)** ﴾ [القصص: ٢١] ويقول: ﴿ **رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)** ﴾ [القصص: ٢٤].

فإظهار الضعف والفقر لله قوَّة يحسها البشر، ولذلك قالت الفتاة لأبيها: ﴿ **يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦)** ﴾ [القصص: ٢٦]، ظهرت قوَّته في دعوته لبني إسرائيل والصبر عليهم، ودعوتهم للثبات على دين الله ﴿ **اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨)** ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وتعظيمه لشعائر الله من صور قوَّته، ظهر ذلك في إلقائه الألواح، وأخذه برأس أخيه يجره إليه، وفي قوله: ﴿ **وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤)** ﴾ [طه: ٨٤].

وفي دعائه: ﴿ **هَرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)** ﴾ [طه: ٣٠ – ٣٥].

ومن طالع سيرة سيّد الأولين والآخرين صلوات الله وسلامه عليه، وجد القوَّة الإيمانية في تمامها وكمالها، فدعوته لقومه وصبره على أذاهم في شخصه الكريم وفي أصحابه الغر الميامين بلسان حال ينطق: «**لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتَّى يظهره الله أو أهلك دونه**» عرضوا عليه العروض السخيّة لترك دعوته، فما لانت قناته، وتآمروا عليه مراراً لقتله، فأنجاه الله منهم ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾**﴾ [الأنفال: ٣٠].

اضطُرَّ ﷺ للهجرة من أحب بلاد الله إلى الله، ومن أحب بلاد الله إلى نفسه الشريفة، وما تخلف عن الجهاد في سبيل الله في مكة أو المدينة، وقد جُمعت له القوة المادية إلى القوة الإيمانية، فكان يثبُت إذا اشتد البأس، أو حمي الوطيس، وكان الشجاع من أصحابه من يحتمي به.

ويوم حنين، عندما انكشف المسلمون، وقف ﷺ يقول: «**أنا النَّبيُّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»، حتَّى

التف أصحابه حوله، وصارع ركانة – وكان من مشاهير العرب بالقوة – فصرعه النَّبيُّ ﷺ ثلاث مرات.

وكان ﷺ يتعبد في غار حراء الليالي ذوات العدد، وتزوده أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها لمثلها، وذلك قبل البعثة، فمن منَّا يطيق ذلك.

ولو نظرنا في أحوال الصالحين، لوجدنا المتابعة الصادقة وأخذ الأمر بكل قوة دون تغيير أو تبديل، لقد شاهد صاحب يس مصرع المرسلين، ورغم ذلك أتى من أقصى المدينة يسعى، يجدد الدعوة، ويقول: ﴿**يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾**﴾ [يس: ٢٠ – ٢٢] ألم يكن يتخوف على نفسه الهلاك، ولماذا لم يحسب حسابًا لبيته وأسرته؟! لقد فوَّض الأمر لله، وعلم أنَّ الله لا يُضيّع أولياءه الذين يستقيمون على شريعته في عسرهم ويسرهم، ومنشطهم ومكرههم.

فلمَّا أخذوه وقتلوه، نصحهم ميتًا كما نصحهم حيًا، وقال: ﴿**يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ**

الْمُكْرَمِينَ (٢٧)﴾ [يس: ٢٦، ٢٧]، وهانوا على ربهم ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠)﴾

[يس: ٢٨ – ٣٠].

إنَّ قوة الإيمان وعمق اليقين كان السبب وراء موقف أصحاب الكهف ومؤمن آل فرعون، وعبد الله الغلام، وأصحاب الأخدود ... وبماذا نفسر موقف سُميَّة وزوجها ياسر وابنها عمَّار، والكل يُؤذى في سبيل الله، ورغم ذلك ما نرى إلاَّ الثبات على طاعة الله، وكان المشركون يضعون بلالاً في حرّ الظهيرة، وعلى ظهره تحمل الصخر، وهو يردد أحدٌ أحد، وكانت أم تميم تُسخّن كتل الحديد حتَّى تحمر، ثم تضعها على رأسه حتَّى يتلوى من الألم...

إنَّ طابور المعذبين في الأرض طابور طويل، منهم من سُجن، ومنهم من قُتل أو طُرد، ومنهم من كان يُؤتى بالمنشار فيوضع فوق رأسه ما يصرفه ذلك عن دينه أبداً، ومنهم من كان يُمشط بأمشاط الحديد، ما بين لحمه وعظمه

ما يصرفه ذلك عن دينه أبداً، وقد أُوذي رسول الله ﷺ وما أوذي أحد مثله، فما ضعفوا وما استكانوا، بل قالوا: حسبُنا الله ونعم الوكيل.

فيا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا، واحذروا من الإيمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر ﴿ **فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** (٨٥) ﴾ [البقرة: ٨٥]، الحذر كل الحذر من خصال المنافقين الذين يعبدون الله على حرف الرخاء والسعة ﴿ **فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** (١١) ﴾ [الحج: ١١]، ﴿ **الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** (١٣٩) ﴾ [النساء: ١٣٩].

غداً ينكشف الغطاء ويتبيّن لمن كانت بضاعته النفاق أن ما حصله كان سراباً يحسبه الظمآن ماءً، حتّى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب، لا براءة لكم ولا عذر في تغيير دين الله، وتبديل

شرع الله ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [يونس: ١٥].

لا تتذرعوا برخصة ولا استكراه في غير موضعه ، تموت الحرة ولا تأكل بثديها، ألا إنَّ موتة في طاعة الله خيرٌ من حياة في معصيته.

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [فصلت: ١٥].

قد تضعف أبداننا، ولا تضعف معاني الإيمان واليقين ومن يتولى فلن يضر إلاَّ نفسه، ولن يضر الله شيئًا، يقول تعالى: ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾ ففي ذلك فلاحكم وسعادتكم، فإن أبيتم ذلك، فستذكرون ما أقول لكم، وأُفوّض أمري إلى الله، والله بصير بالعباد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فساد الانتهاء
من فساد الابتداء

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد :

فالاهتمام بالبدايات متأكّد؛ إذْ له ما بعده، والعلاقة وثيقة بين البداية والنهاية، ففساد الانتهاء من فساد الابتداء، والعبد إذا فسدت بدايته، فسدت نهايته، وإذا فسدت نهايته، فربما هلك إلاّ أن يتدارك ويتوب.

وقالوا: الفترة (التراخي والتكاسل) بعد المجاهدة من فساد الابتداء.

وكان شداد بن أوس رضي الله عنه يقول: «اعلموا أنكم لن تروا من الخير إلاّ أسبابه، ولن تروا من الشر إلاّ أسبابه، الخير بحذافيره في الجنة، والشر بحذافيره في النار، والدنيا عرض

حاضر يأكل منه البر والفاجر، والآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قاهر، ولكل دار بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا».

وكان أيضًا يقول: «إذا رأيت الرجل يعمل بطاعة الله فاعلم أنَّ لها عنده أخوات، وإذا رأيت الرجل يعمل بمعصية الله، فاعلم أنَّ لها عنده أخوات؛ فإن الطاعة تدل على أختها، وإنَّ المعصية تدل على أختها».

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ ﴾ [الليل: ٥ - ١٠]، فكما أنَّ ثمرة الطاعة طاعة، فثمرة المعصية معصية.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «يا صاحب الذنب لا تأمنن سوء عاقبته، فما يتبع الذنب أشد من الذنب إذا عملته».

إنَّ التناسب واضح بين المقدمات ونتائجها، ولذلك قال سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ

ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

وربك هو الحكم العدل، لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، فالطاعة ثمرتها سعادة ونصر وعز وتمكين، والمعصية ثمرتها تعاسة وشقاء وهزيمة وشر، قال تعالى: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

وكما قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «ما نزل بلاء إلاَّ بذنب وما رُفع إلاَّ بتوبة».

فالجزاء من جنس العمل، اعمل ما شئت كما تدين تُدان، وهذا علم حريٌّ بأن يُطلق عليه اسم علم الطب القرآني، أو علم الطب النبوي، وهذا المعنى الجليل شواهده كثيرة، ومن ذلك ارتباط الاسم بالمسمى، فقد منع النَّبيُّ ﷺ من كان اسمه حربًا أو مرة أن يحلب تلك الشاة التي أراد حلبها.

وقال سعيد بن المسيب: «ما زالت فينا تلك الحزونة»، وهي التي حصلت من تسمية الجد بحزن.

وقال عمر لجمرة بن شهاب: «أدرك أهلك فقد احترقوا».

قال ابن القيم – رحمه الله – : قلَّ أن ترى اسمًا قبيحًا إلاَّ وهو على مسمى قبيح، كما قيل:

وقلَّ ما أبصرتْ عيناك ذا لقبٍ
إلاَّ ومعناه إنْ فكّرت في لقبه

والله سبحانه بحكمته في قضائه وقدره، يُلهم النفوس أن تضع الأسماء على حسب مسمياتها ؛ لتناسب حكمته تعالى بين اللفظ ومعناه، وكما تناسبت بين الأسباب ومسبباتها.

قال أبو الفتح بن جني: «ولقد مرَّ بي دهر، وأنا أسمع الاسم لا أدري معناه فآخذ معناه من لفظه، ثم أكشفه، فإذا هو ذلك بعينه أو قريب منه» اهـ.

ولذلك ينبغي أن نُحسن أسماء أولادنا ما وسعنا الأمر، فالنَّبيّ ﷺ عندما أقبلت عليه أسلم وغفار، قال: «**أسلم: سالمها الله، وغفار: غفر الله لها**».

ومن الشواهد الدالة على أنَّ فساد الانتهاء من فساد الابتداء:

ما ورد عن ثابت البناني قال: «رأيت رجلاً يضرب أباه في موضع قيل له: ما هذا؟!، فقال الأب: خلوا عنه؛ فإني كنت أضرب أبي في هذا الموضع، فابتليت بابني يضربني في هذا الموضع».

وحُكيَ: أنَّ رجلاً قام على خدمة أبيه، فسئمه وملَّه، فخرج به إلى الصحراء، فقال له أبوه: ماذا تريد مني؟ قال له الابن: أن أذبحك. فقال له الأب: فاذبحني عند الصخرة، فقد ذبحت أبي عندها. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال البعض: عققناهم صغاراً؛ فعقونا كباراً.

فتعاهدوا الأبناء بحسن التربية، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم، فإنْ قصّرت فاستغفر الله، وبادر السيّئات القديمات بالحسنات الحديثات، فالحسنات يُذهبن السيّئات، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

ومما يوضح لك قيمة البداية، ما قاله الشافعيّ – رحمه الله – وغيره: تفقهوا قبل أن تسودوا، وقالوا: تفقهوا قبل أن ترأسوا، وقالوا: من سعادة الحدث إذا نسك أن يوفق لصاحب سُنَّة، يحمله عليه، وعلى العكس والنقيض، فمن شقائه وتعاسته أن تكون نشأته وتربيته على أيدي أصحاب البدع، فهذه البدع تعلق بالقلوب وتترك أثرها بالنفوس.

ولذلك كان ابن سيرين إذا دخل عليه من يتكلم بالقدر، يسد أذنيه ويقول له: إما أن تخرج، وإما أن أخرج.

ومن وقّر صاحب بدعة، فقد أعان على هدم الدين، وإذا كان هذا صنيع الكبار، فكيف يكون شأن الصغير إذا ترعرع بين العقائد المنحرفة، وفي أجواء أهل الفرق النارية الضالة، وقد قالوا: «العلم في الصغر كالنقش على الحجر».

وعلى سبيل المثال لا الحصر، من دان بعقيدة الخوارج الذين يُكفّرون بالمعصية والكبيرة ويتركون أهل الأوثان، ويقتلون أهل الإسلام! هل تأمن أن يستل سيفه ويضرب به رقاب المسلمين؟! وقد يستحل أموالهم وأعراضهم، ويظن أنه يُحسن الصنع، وأنه يجاهد بذلك في سبيل الله!.

فالسلوك مرآة الفكر، وقد استحل الخوارج من قبل دماء عبد الله بن خباب، وبقروا بطن امرأته الحامل، بينما لم يستحلوا دماء الخنزير، ولا ثمن التفاحة، وكفّروا عليًا بن أبي طالب – المشهود له بالجنة – وقاتلوه يوم النهروان، هو ومن معه من الصحابة، ولم يكن مع الخوارج فقيه واحد.

يقول ابن كثير – رحمه الله – : «ما أعجب جنس الخوارج – ولله في خلقه شئون – فقد خطبهم الراسي خطبة بليغة، ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، زهّدهم فيها في الدنيا ورغّبهم في الآخرة، وحثّهم على الجهاد في سبيل الله، ثم خرجوا يُقاتلون الصحابة الكرام ﷺ، بدلاً من أن يُقاتلوا فارس والروم».

ولك أن تتخيل لو تربَّى الصغير على حماسات فارغة، لا فقه فيها كحماسة الخوارج، ماذا يكون حاله وشأنه إذا ترأّس أو ساد وقاد غيره بهذه الضلالات؟! من الصعب العسير أن يرجع وينقاد للحق ويُصبح أسيراً للكلمة التي قالها، ورئاسته وقوَّة شخصيّته المزعومة تُصبح مانعًا له في الأعم الأغلب، إلاَّ أن يكون من أصحاب العزائم، كهذا العالم الذي أخطأ في

مسألة، وراجعه إخوانه ، فقال: إذن أرجع، ولأن أكون ذَنَبًا في الحق، خير من أن أكون رأسًا في الباطل.

وإذا كان لا دخان بلا نار، فمن نُذُر الشر وجود التفرق والاختلاف والتَّنازع، وهو مقدّمة الفشل الذي سيصيب هؤلاء المختلفين، نقول ذلك دون رجم بالغيب، وقال تعالى: ﴿ **وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا** ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال سبحانه: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ** ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣]، فمن أعظم أسباب النصر، الأُلفة بين النفوس.

فإذا دبَّت النفرة وحدثت الفرقة، آلت بالبلاد والعباد إلى هزيمة وشر، ومن ذلك الصحبة فالصاحب يدل على صاحبه، وكل قرين بقرينه يقتدي، فالحيَّات مع الحيَّات، والعقارب مع العقارب، وكما قالوا: قل لي من صاحبك، أقول لك من أنت، وهذا أيضًا لا رجم فيه بالغيب.

قال تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ**

لِلإِنسَانِ خَذُولاً (٢٩) ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩] وقد نزلت الآيات بشأن عقبة بن أبي معيط، كان يُحسن لرسول الله ﷺ، على الرغم من كفره، فلمّا أتى صاحبه من الشام، دفعه لإيذاء رسول الله ﷺ، فكان عقبة أشقى القوم.

ومن الشواهد الدالة أيضًا على أنَّ فساد الانتهاء من فساد الابتداء:

العلاقات المحرمة بين الرجال والنساء، والاختلاط المريب، والذي يُطلقون عليه أحيانًا اسم «الصداقة البريئة» ويبررونه بأنه السبيل لكي يتم التعارف والتآلف والزواج بعد ذلك!.

أجرى عميد أحد المعاهد الاجتماعية بحثًا على (١٥٠٠) حالة زواج مبنيّة على الحب، فوجدها فاشلة، ولا يستغرب؛ فهذا شأن ما بُنيَ على باطل، ولا يُبارك الله في الحرام، فالخطوبة علاقة أجنبي بأجنبيه، وهو مجرد وعد بالزواج، فإذا نظر إليها وأعجبته ونظرت إليه وأعجبها، عادت الحرمة كما كانت، فلا يجوز له أن ينظر إليها، ولا أن يخلو بها، ولا أن يُضاحكها، ولا أن تخضع معه بالقول، وإذا دعت الحاجة أو الضرورة للكلام والجلوس، فالكلام بقدر

الحاجة، ولابد من وجود المحرم مع التأدب بالآداب الشرعية.

وهذه البداية الموفقّة التي تمّت باستخارة واستشارة يُرجى من ورائها حصول المودَّة والرحمة ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾ [الروم: ٢١].

بل انظر للمشاكل التي تنشأ من زواج المرأة بدون ولي، وكأنها محكوم عليها بالفشل منذ البداية، فلا نكاح إلاَّ بوليّ، بل لا يُزوّج الولي الأبعد في وجود الأقرب، إلاَّ إن أعضلها ومنعها الأقرب من زواج الكفء المناسب.

البدايات الفاسدة عاقبتها وخيمة في العاجل والآجل، يدلّك على ذلك ما حدث مع فرعون، فقد ادّعى الربوبية والألوهيّة وأفسد في الأرض، فكان مآله إلى الغرق، وصارت الديار العامرة آثاراً وأطلالاً، وحاله الآن كما أخبر سبحانه: ﴿ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)** ﴾ [غافر: ٤٦].

وما يحدث مع الأفراد يحدث مع الدول والجماعات، كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، وغيرهم من الأمم الكافرة

المكذبة، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾

[الطلاق: ٨، ٩].

وقال سبحانه: ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨]، وفي الحديث: «**يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف**» قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا ظهر الخبث**» [رواه الترمذي].

لقد أصبحت سدوم مدينة قوم لوط عبارة عن بحيرة منتنة، كما كانت فعلة القوم منتنة، ففساد الانتهاء من فساد الابتداء.

ومن أعظم الأدلة على ذلك:

حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: «**يا معشر المهاجرين، خمس خصال إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتَّى يُعلنوا بها إلاَّ فشا فيه الطاعون والأوجاع**

التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلاَّ أُخذوا بالسنين، وشدَّة المؤونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلاَّ مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلاَّ سلط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، ولو لم تحكم أئمّتهم بكتاب الله ويتخيروا فيما أنزل الله، جعل الله بأسهم بينهم» [رواه ابن ماجه والبزار والبيهقي، والحاكم وصححه على شرط مسلم].

فقف مع أول همّك، فإن كان لله أمضيته، وإن كان لغيره توقّفت، واصنع لنفسك خطامًا وزمامًا، تقودها بخطامها إلى طاعة الله، وتذمها بذمامها عن معصية الله، ودقق في البدايات؛ فمعظم النار من مستصغر الشرر.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كشف الهيئة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد :

فشغل الوظائف وتقلّد الأعمال لابد فيه من امتحان يتعلق بالحديث وطريقة الكلام، وطلاقة اللسان، وذكاء الشخص، وشكله، وهيئته، وهذا الامتحان يُطلق عليه اسم كشف الهيئة، وهو مادة نجاح ورسوب، ولا يتعلق فقط بالأعمال العامة والوظائف المهمة، بل حتَّى المحلات والأشغال الخاصة، قد تشترط الدورات والدراسات في كيفية التعامل مع الزبائن من حيث الابتسامة وطريقة العرض ومظهر البائع..

وأحيانًا يطلبون سكرتيرة حسنة المظهر والهيئة، ولا بأس أن تكون متبرجة عندهم؛ حتَّى تستميل قلوب العملاء،

وتحقق المصلحة - بزعمهم - ويكثر الدخل حتَّى ولو على حساب العِرض والدين، وفي الزواج ينظر للمرأة التي يريد الزواج منها، وتنظر هي إليه؛ لأنه أحرى أن يُؤدم ويتم الوفاق بينهما؛ ولأنه يُعجب الرجال من النساء ما يُعجب النساء من الرجال، وقد يتم الرفض أو القبول تبعًا لذلك، ولا إثم في الرفض، حتَّى وإن كان صالحاً، وإلاَّ فلماذا شُرع النظر، بل كانت الهيئة والشكل هي سبب قصة أول خُلع في الإسلام. وقال النَّبيّ ﷺ لفاطمة بنت قيس: «**أتردين عليه حديقته**» قالت: أفعل يا رسول الله.

فالهيئة لها قيمتها في دين الله، وقد أعطى سبحانه جميع الأنبياء والمرسلين وحباهم بجمال الطلعة والهيئة؛ حتَّى لا ينصرف الناس عنهم بزعم دمامة الخِلْقة، وهذا من جملة الفروق التي فرق بها العلماء بين معجزات الأنبياء وبين خوارق الدجال في آخر الزمان، فالدجال أعور العين اليمنى، عينه كعنبة طافئة، مكتوب بين عينيه كافر، ولا يستطيع محو هذه الدمامة عن نفسه، رغم ادّعاءه الربوبية والألوهية، والعلاقة وثيقة بين المظهر والمخبر، وبين الهيئة الظاهرة وباطن

العبد، فالأعضاء تستقيم باستقامة القلب، والقلب هو الملك المؤمر، والحواس والجوارح جنوده.

والناظر في أحوال الناس اليوم، وما ينشدونه من حسن السمت والهيئة، سيجد أنَّ اللوثة الماديّة قد أصابت هذا الجانب، بل صارت هي الأصل فيه، فاستخدام العنصر النسائي لتسهيل الأعمال ولترويج البضائع والسلع، وبحيث تصبح المرأة فتنة لنفسها وفتنة لغيرها، صورة من صور الابتذال.

وكذلك قول الناس: هو جميل وظريف ولطيف... مع عدم المبالاة بمعاني التدين والصلاح تدل على معاني الغربة ومدى الانحراف في التقييم، وكم من شر وفساد قد يحدث إذا أهملت موافقة الولي، واستقلت المرأة باختيار الزوج، ولم تلتفت إلاَّ لوسامته ووجاهته، وحلو حديثه، وقد يكون تاركًا لصلاته مقامرًا مخمورًا، ومثل هذا لا يؤتمن على نفسه فضلاً عن أن يؤتمن على غيره.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يبعث لولاته ويقول: ألا إنَّ أهم أموركم عندي الصلاة، ألا إنه لا حظَّ في الإسلام لمن ضيّع الصلاة. وكان يقول: من ضيّعها فهو لما سواها أضيع.

وكانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول: «النكاح رق؛ فلينظر أحدكم عند من يسترق كريمته».

ولما سُئل الحسن: من أُزوّج ابنتي؟ قال: زوجها التَّقيّ النقيّ؛ فإنه إن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يهنها.

والكفاءة معتبرة بالديانة والصلاح والحرص على طاعة الله، ولا نكاح إلاَّ بوليّ، وأيما امرأة نُكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل؛ فالمرأة لا تستقل بتزويج نفسها، والمرأة لا تُزوج المرأة.

وما أيسر أن يتجمل الإنسان، وأن يُظهر الوجه الحسن، وقد تروج الزخارف والزينات وإظهار الجميل، وتكتم القبيح لحين، ولكن لابد وأن ينكشف الغطاء ويتبين لمن كانت بضاعته النفاق أنَّ ما حصله كان سرابًا؛ فالعملة الزائفة لا تروج على الله، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١)﴾ [البقرة: ١١١]، وما أسرّ عبد سريرة إلاَّ أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه، ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

فلا ينبغي أن نغتر بزخارف من القول، والسمت والهيئة

التي نختارها ونُقدمها ينبغي أن تنضبط بشرع الله؛ حتَّى لا نحسن القبيح ونقبح الحسن.

قال أبو عبيد: السمت يكون في حسن الهيئة والمنظر من جهة الخير والدين، لا من جهة الجمال والزينة، فحسن السمت والهيئة، هو حسن المظهر الخارجي للإنسان من طريقة الحديث والصمت، والحركة والسكون، والدخول والخروج، والسيرة العملية في الناس، بحيث يستطيع من يراه أو يسمعه أن ينسبه لأهل الخير والصلاح، والديانة والفلاح، وقد ورد في الحديث: «**إنَّ الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة**» [رواه أبو داود وأحمد والبخاري في الأدب المفرد].

والهيئة الحسنة في تمامها وكمالها هي ما كان عليه الأنبياء والمرسلون، فهم المقياس والضابط والميزان في كل شيء، وفي سؤال إسماعيل عليه السلام لزوجه: «هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته أنَّا بخير..» الحديث رواه البخاري، وقصدت بالشيخ حسن الهيئة نبيّ الله إبراهيم عليه السلام.

وفي حديث جابر بن سمرة: «فجعلت أنظر إلى

رسول الله ﷺ وإلى القمر وعليه حلة حمراء، فإذا هو عندي أحسن من القمر» [رواه الترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي].

وفي حديث البراء بن عازب قال: «كان النَّبيّ ﷺ مربوعًا، وقد رأيته في حلة حمراء ما رأيت شيئًا أحسن منه» [رواه البخاري ومسلم]، وكان ﷺ إذا خطب احمرَّت عيناه وعلا صوته واشتدّ غضبه، حتَّى كأنه منذر جيش يقول: «**صبّحكم ومسَّاكم**» [رواه مسلم]، وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «**البسوا من ثيابكم البياض، فإنها خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم**» [رواه أبو داود والترمذي].

وقال ﷺ: «**ما كان أسفل من الكعبين فهو في النار**»، «**من جرَّ إزاره بطراً لم ينظر الله إليه**» [رواه أبو داود وابن ماجه وإسناده صحيح].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «أتانا رسول الله ﷺ فرأى رجلاً شعثًا قد تفرق شعره فقال: «**أما كان يجد هذا ما يُسكن به شعره؟**» ورأى رجلاً آخر وعليه ثياب وسخة، فقال: «**أما كان يجد هذا ماءً يغسل به ثوبه**» [رواه أبو داود وصحّحه الألباني].

وقال ﷺ : «**الغسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم، وأن يستنَّ وأن يمسّ طيبًا إن وجد**» [رواه البخاريُّ ومسلم]، وقال : «**ما على أحدكم إن وجد أو ما على أحدكم إن وجدتم أن يتخذ ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته**» [رواه أبو داود وابن ماجه وإسناده صحيح]، وقال: «**من كان له شعر فليكرمه**» [رواه أبو داود وحسّن الألباني إسناده].

فالسمت والهيئة لا تنفصل عن هدي النبوة، ويُخطئ من يظن أنها متروكة لأهواء العباد، فالحسن ما حسنته الشريعة ووردت به الآثار والسنن، وهذا هو الذي حرص عليه الأفاضل، قالت عائشة رضي الله عنها : «ما رأيت أحداً كان أشبه سمتًا ودلاً وهديًا برسول الله ﷺ في قيامها وقعودها من فاطمة رضي الله عنها».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «من سرَّه أن ينظر إلى هدي رسول الله ﷺ، فلينظر إلى عمرو بن الأسود».

وقال مالك : «كان عمر أشبه الناس بهدي رسول الله ﷺ، وأشبه الناس بعمر ابنه عبد الله، وبعبد الله ابنه سالم».

وقد أولى سلفنا الصالح – رحمهم الله – السمت الحسن قيمة كبيرة في كلامهم، قال ابن مسعود رضي الله عنه :

«إنكم في زمان كثير فقهاؤه، قليل خطباؤه، قليل سؤّاله، كثير معطوه، العمل فيه قائد للهوى، وسيأتي من بعدكم زمان قليل فقهاؤه، كثير خطباؤه، كثير سؤّاله، قليل عطاؤه، الهوى فيه قائد للعمل، اعلموا أنَّ حسن الهدي في آخر الزمان خير من بعض العمل» وقال أيضًا: «ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله، إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس يفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخلطون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًا، محزونًا، حكيمًا، حليمًا، عليمًا، سكّيتًا، وينبغي لحامل القرآن أن لا يكون جافيًا، ولا غافلاً، ولا صخّابًا، ولا صيّاحًا، ولا حديداً».

وقال مالك: «إنَّ حقًا على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، وأن يكون متبعًا لأثر من مضى قبله».

وقال الميموني: «ما رأيت أحداً أنظف ثوبًا، ولا أشدّ تعاهداً لنفسه في شاربه، وشعر رأسه وشعر بدنه، ولا أنقى ثوبًا وأشد بياضًا من أحمد بن حنبل».

وقال ابن الجوزي: «لقيت عبد الوهاب الأنماطي، فكان

على قانون السلف، لم يُسمع في مجلسه عيبة، ولا كان يطلب أجراً على سماع الحديث، وكنت إذا قرأتُ عليه أحاديث الرقائق بكى واتّصل بكاؤه، فكان وأنا صغير السن حينئذ يعمل بكاؤه في قلبي ويبني قواعد الأدب في نفسي، وكان على سمت المشايخ الذين سمعنا أوصافهم في النقل».

وقال - رحمه الله - : «الكمال عزيز والكامل قليل الوجود، أول أسباب الكمال تناسب أعضاء البدن، وحسن صورة الباطن، وصورة البدن تُسمى خَلقًا، وصورة الباطن تُسمى خُلقًا، ودليل كمال صورة البدن حسن السمت، واستعمال الأدب، ودليل صورة الباطن حسن الطبائع والأخلاق، فالطبائع: العفة والنزاهة والأنفة من الجهل، ومباعدة الشَّره، والأخلاق : الكرم والإيثار وستر العيوب وابتداء المعروف والحلم عن الجاهل».

ولم يكن الأفاضل يفصلون بين معاني العلم النافع والعمل الصالح، بل كانت الكثرة تسلط نظرها على السمت والسلوك والهيئة، ومن المعلوم أنَّ الدعوة بالسلوك أبلغ من الدعوة بالقول، فكان أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه ينظرون إلى سمته وهديه ودلّه فيتشبهون به.

وكان يحضر مجلس أحمد بن حنبل زهاء خمسة آلاف أو يزيدون، أقل من خمسمائة يكتبون، والباقي يتعلّمون منه حسن الأدب، وحسن السمت ، وكان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلى سمته وهديه لا لاقتباس علمه، وذلك أنَّ ثمرة علمه هديه وسمته.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: «كنَّا نأتي الرجل ما نريد علمه، ليس إلاَّ أن نتعلم من هديه وسمته ودله» .

وكان علي بن المديني وغير واحد يحضرون عند يحيى ابن سعيد القطان ما يُريدون أن يسمعوا شيئًا إلاَّ أن ينظروا إلى هديه وسمته».

وقال المروذي: «لم أرَ الفقير في مجلس أعز منه في مجلس أبي عبد الله، كان مائلاً إليهم مُقصِراً عن أهل الدنيا، وكان فيه حلم، ولم يكن بالعَجول، وكان كثير التواضع تعلوه السكينة والوقار، إذا جلس في مجلسه بعد العصر للفتيا لا يتكلم حتَّى يُسأل، وإذا خرج إلى مسجده لم يتصدر، يقعد حيث انتهى به المجلس، وهكذا فأنت ترى كيف كانوا يقصدون هذا المعنى بالتعلم والطلب أكثر من النقل من الكتب؛ وذلك لأن حسن السمت من أخلاق الأنبياء

والصالحين، وهو دليل كمال الإيمان ورجاحة العقل، ويَكسب المرء احترام الآخرين وحبهم، كما يكسبه الهيبة والوقار، ويدل في كثير من الأحيان على صفاء القلب ونقاء السريرة.

فعلى من يقوم بكشف الهيئة، ومن ينظر في سمت المستخدمين لتخليص مصالحه، وعلى الرجل والمرأة في الخطوبة... أن ينظروا بعين الشريعة وأن يحرصوا على الاقتداء بأهل الفضل والصلاح في جميع أحوالهم، حتّى تتحقق المنافع وتندفع المضار والمفاسد، ولا يصبح الإنسان كحاطب بليل، أو كأعشى البصر والبصيرة، ممن يغتر بملمس الحيّة الناعم، وفي اقتنائها هلاكه.

ولنعلم أنَّ من كانت علانيته أفضل من سريرته، فهو الجور، ومن كانت سريرته كعلانيته فهو العدل، ومن كانت سريرته أفضل من علانيته فهو الفضل.

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تربية القادة لا تربية العبيد

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد :

فالقيادة شأنها عظيم وخطير، حتَّى عدَّ البعض ضعف القيادة من أعظم مشاكل المسلمين المعاصرة، وقال: المسلمون إلى خير، ولكن الضعف في القيادة، وقال الآخر: القيادة شطر القضية، وشطرها الآخر الأمة بمجموع أفرادها.

وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول: إنَّ الله ليُزع بالسلطان، ما لا يُزع بالقرآن.

وحين أنكر الخوارج ضرورة الخلافة، قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: لابدَّ للناس من إمارة برة كانت أو فاجرة. فقيل: يا أمير المؤمنين، هذه البرة قد عرفناها (وهي ما

كانت على منهاج النبوة) فما بال الفاجرة؟، فقال: تُقام بها الحدود، وتأمن السبل، ويخشاها العدو ويُقسم بها الفيء.

وقد سمعنا عن مدارس تخريج القادة، وتكلم آخرون عن صفات القائد الذي لا يقر ولا يستقر، ولا يعرف كللاً ولا مللاً، ولا يطلب راحة ولا هدوءاً دون تحقيق الهدف الذي يصبو إليه، وأنَّ هؤلاء قلَّة في العالم، ولو كانوا كثيرين لأحدثوا في كل يوم انقلاباً، ويذكرون لنا الأمثلة على هؤلاء القادة كنابليون بونابرت، وهتلر، وجيفارا، وماوتس تونج ، وكاسترو....

ولا تكاد تسمع إلاَّ أسماءاً ليس لله فيها نصيب، وكثرة ممن كتبوا عن القيادة، إذا ذكروا اسم النَّبيّ ﷺ، وأدخلوه في مصاف القادة العظام، فلابد عندهم من تعريته من صفة الوحي والنبوة، ولذلك كان لابد من مراجعة وتدقيق وتمحيص، فما هو مفهوم القيادة، ومن الذي رباهم، وما هي مناهج تربيتهم، فقد لا يصلح ذلك كله لتربية الجنود فضلاً عن القادة.

والميزان في هذا وغيره هو هذا المنهج الكامل الشامل

لكل ناحية من نواحي الحياة ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة : ٣]، ﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)** ﴾ [الملك : ١٤] فموازين القيادة الحقَّة محفوظة في كتاب الله وفي سُنَّة رسول الله ﷺ، لا تتعداها لغيرها، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون.

وما ترك الصادق المصدوق – صلوات الله وسلامه عليه – خيراً يُقرب الأمة من ربها إلاَّ ودلَّها عليه، ولم يترك شراً يُباعد الأمة عن الله – عز وجل – إلاَّ حذرها منه، ونهاها عنه وأمرها باجتنابه، وإذا ورد شرع الله بطل نهر معقل، فهل من يعقل.

وما علينا إلاَّ أن نقول: ﴿ **سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)** ﴾ [البقرة: ٢٨٥] نريد قيادة ترضي ربها، وتضع الإسلام نُصب عينها، تأتلف حولها القلوب، وتتحقق على يديها للبلاد والعباد خيرات الدنيا، ونعيم الآخرة، وهذا لا يتحقق إلاَّ بمتابعة منهج الأنبياء والمرسلين ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ [الأنعام: ٩٠].

أمَّا أن يلعن القادة الأتباع، والأتباع القادة، ويسفك بعضهم دماء بعض، فلا خير فيهم، وباطن الأرض خير لهم من ظاهرها، بعث ربنا - جلَّ وعلا - للبشر رسلاً، كانوا هم القدوة والقادة.

انظر في قصة نبيّ الله نوح عليه السلام واجه أمَّة كافرة، ظلَّ يدعوها ألف سنة إلاَّ خمسين عامًا، قال لهم: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، وفي هذا خيرهم وسعادتهم في العاجل والآجل، فكانوا يؤذونه حتَّى يُغمى عليه، فإذا أفاق دعاهم إلى الله وحده، لم تضعف عزيمته، بل واصل الليل بالنهار، ودعاهم سرًا وعلانية، وفي النهاية ما آمن معه إلاَّ قليل، والقادة الحقيقيون لا يُعرفون بكثرة الأتباع ولا بقلّتهم، ولكن بمقدار قربهم للحق، وانشغالهم بمعالي الأمور وأشرفها، وهكذا كان نبيّ الله نوح، فمهمَّته هي أعظم مهمة، وعزيمته تضعف أمامها الجبال.

وقد كان نبيّ الله إبراهيم عليه السلام، أمة وحده ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١)﴾ [النحل:

١٢٠، ١٢١] تعرف ذلك من دعوته لأبيه ومواجهته لقومه، ومناظرته للنمروذ، وتسليمه لأمر الله، وإقامته لدين الله.

وانظر في دعوة نبيّ الله موسى عليه السلام، لقد واجه فرعون والملأ، وصبر على دعوة بني إسرائيل وتعبيدهم لله – جلَّ وعلا – ، ارتحل إلى مدين، وقد تجمّعت فيه معاني القيادة: القوّة والأمانة، ولذلك قالت ابنة شعيب لأبيها: ﴿ **يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ** (٢٦) ﴾ [القصص: ٢٦] ، وكان لسان حاله ينطق قبل مقاله: ﴿ **وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ** (٨٤) ﴾ [طه: ٨٤].

ونبينا ﷺ هو سيد القادات، وقائد السادات، دعوته وسيرته وأخلاقه... هي الأسوة والقدوة لتربية القادة وقيادة الدنيا ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** (٢١) ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فقد خرَّج النَّبيُّ ﷺ علماءً ورجالاً وقادة لا كالقادة، لهم أوفر الحظ والنصيب من واقعه الذي نطق: «**والله لو جعلوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن**

أترك هذا الأمر ما تركته، حتَّى يُظهره الله أو أهلك دونه»، استعلوا على الدنيا وحطامها الفاني، فكانوا سادة وقادة.

يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه : أينقص الإسلام وأنا حيٌّ.

قاتل المرتدين، وقال: والله لو جرت الكلاب بأرجل أمهات المؤمنين ما حللت لواءً عقده رسول الله ﷺ، وما صحب الأنبياء مثله رضي الله عنه يقول عنه عمر رضي الله عنه: «رحم الله أبا بكر، كان أعرف مني بالرجال».

وتولَّى عمر الفاروق الخلافة من بعده، وهو القوي في دين الله، سار بالعدل في الرعية، وكان محدثًا، وافق الوحي في أكثر من موضع، وكان يتخوف أن تتعثر شاة بوادي الفرات، فيُسأل عنها يوم القيامة لماذا لم يمهد لها الطريق، قال يومًا: أرأيتم إن استعملت عليكم خير من أعلم، ثم أمرته بالعدل، أقضيت ما عليَّ؟ قالوا: نعم. قال: لا، حتَّى أنظر في عمله، أقام بما أمرته أم لا.

وسيرة خالد بن الوليد في قيادة الجيوش وفتوحاته

معلومة لدى العدو قبل الصديق، تولّى يوم مؤتة بعد موت القادة الثلاثة – من غير إمرة ففتح الله عليه – وعزله عمر رضي الله عنه عن القيادة فقاتل جنديًا، و فتح قنسرين هو وثلة من أصحابه، وكان قادة الروم يسمعون بمجيئ خالد فيفرون من المعركة.

ومن تتبع سيجد الكثير من صور القيادة الفذة، يحكون عن هارون الرشيد أنه بعث إلى نقفور ملك الروم يقول له: «أما بعد، فمن هارون الرشيد أمير المؤمنين، إلى نقفور كلب الروم، فإن الأمر ما ترى لا ما تسمع». وكان هارون الرشيد يحج عامًا ويغزو عامًا، ويخاطب السحاب، ويقول: «سيري أينما شئت أن تسيري فسيأتيني خراجك».

وكان صلاح الدين الأيوبي كالوالهة الثكلى، فقدت وحيدها، يتململ في فراشه ويتقلب فيه، ولا يجد النوم سبيلاً إلى جفنيه، يقول لوزيره ابن شداد: «أما أسر لك حديثًا، إني أتمنى إن فتح الله عليَّ بيت المقدس أن أركب البحر أُقاتل في سبيل الله كل من كفر بالله حتَّى يُظهرني الله أو أموت».

نحن بحاجة لإعادة صياغة، وأن نتربى تربية إيمانية تصل الدنيا بالآخرة، والأرض بالسماء، تربية القادة لا تربية العبيد، تربية يُشارك فيها الرجال والنساء، والكبار والصغار، وما فاتنا وضعف فينا نُحاول تداركه في أبنائنا، فنحن لا ندري من الذي سيفتح على يديه بيت المقدس، ومن الذي سيقود الدنيا بدين ربها .

دخل رجل على هند بنت عتبة، وهي تحمل معاوية، فقال لها: إن عاش معاوية، ساد قومه، قالت: ثكلته إن لم يَسُد قومه، وكان معاوية ﷺ إذا نوزع الفخر يقول: أنا ابن هند .

وكان عليٌّ ﷺ يقول: أنا الذي سمَّتني أمي حيدرة (والحيدرة من أسماء الأسد) .

ويقولون: وراء كل عظيم امرأة، والمرأة لها دور كبير في تخريج القادة إذا تأسّت بالصحابيّات الفضليات، أما إذا أصبحت همَّتها في الرقص والغناء، ومتابعة الموضات، وارتياد شواطئ البحر، ودور السينما والمسرح – أضاعت نفسها وأضاعت الأمة من حولها، وخلفت أشباه الرجال ولا

رجال، شباب قنع، لا خير فيهم، وبُورك في الشباب الطامحين .

والفارق كبير بين تربية السادة وتربية العبيد، لقد وُجدت أجيال تربَّت على سموم الفرعونية والبابلية والوطنية والقومية، والاشتراكية، والديمقراطية، ولم تعرف شيئًا عن دينها، فهل يُقال عن هؤلاء قادة المستقبل وجنود معركة المصير؟!!.

إنَّ الواحد من هؤلاء قد لا يصلح لأن يقود نفسه أو بيته فكيف يُطلق عليه وصف القائد والزعيم، وفاقد الشيء لا يعطيه، فالقيادة ليست تسلطًا ولا قهرًا ولا جبروتًا، ولكنها أمانة وكفاءة، بصيرة بالأمور، وعلو همَّة، صبرٌ وثبات وثقة بنصر الله، وطمأنينة إلى تأييده، نحرص على توافر الشروط الشرعية فيمن يقود، فالخليفة والحاكم ينبغي أن يكون ذَكَرًا، حرًا، عاقلاً، عدلاً، مُجتهدًا في دين الله، على معرفة بأمر الحرب، وتدبير الجيوش، وسد الثغور، وحماية بيضة المسلمين، لا تأخذه رقة في إقامة الحدود الشرعية....

فالخلافة موضوعة لإقامة الدين وسياسة الدنيا به،

والولاية والإمارة تكون للأمثل فالأمثل، ولابد فيها من القوة والأمانة، ولا يجوز الترأس بالجهالة؛ ولذلك قالوا: تفقهوا قبل أن ترأسوا، وقالوا: تفقهوا قبل أن تسودوا، أي قبل أن تصبحوا سادة وقادة، أما الاكتفاء بمعرفة البروتوكول في تناول الطعام والشراب والمشي، وقراءة كتاب الأمير لميكيافيللي، فهذه الأمور لا تصلح لتربية الجنود فضلاً عن تخريج القادة.

ومع حرصنا على الأخذ بالأسباب الشرعية، لابد وأن تعلم أنَّ القيادة من قبل ومن بعد، فضل من الله يؤتيه من يشاء، فالمؤهلات والقدرة، وتذليل الصعاب، ومحبة الرعية لقائدها وانقيادها له كل ذلك محض فضل وتوفيق من الله، وهذه الأمة قد أنيط بها إقامة الحق في الخلق وقيادة البشرية بأسرها ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾ [النور: ٥٥].

فإذا كنَّا قد أصبحنا غثاءاً كغثاء السيل، فهذا لا يمنعنا من النهوض والأخذ بالأسباب لوراثة الأرض بالحق والعدل، وإقامة خلافة على منهاج النبوة، وهذا يتطلب منَّا إيجاد المسلم بمفهومه الحقيقي، بحيث تتوافر فيه الصبغة الإلهية والثبات على الحق، ومعاني العزة والمجاهدة والبصيرة، والأوبة إلى الله وإدراك الغاية من الحياة، وغير ذلك من المعاني التي تُؤهل المسلم لأن يُناطح السحاب، تهتز الجبال، ولا تهتز معاني اليقين في نفسه، يصنع كما صنع ربعي بن عامر عندما دخل على رستم قائد الفرس فسأله: مَنْ بعثكم؟ فأجابه ربعي: «ابتعثنا الله لنُخرج من شاء من عبادة العباد، إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

ولو استقامت الموازين لعلمنا أنَّ القيادة بحق كانت لربعي المغمور لا لرستم المشهور؛ فالقائد يجب أن يُخلص عمله لله ويتواضع لجنابه سبحانه.

والتنازع على القيادة يُفسد النوايا، وتضيع به البلاد والعباد؛ فالمركب تستقر في قعر المحيط إذا بويع لخليفتين،

وحسبُك أن تُطيع قائدك في غير معصية الله، حتَّى وإن كنت أهلاً للقيادة والإمارة، فمن الجائز إمامة المفضول للفاضل ، والخلاف شر كله ، ولا تُبالي إذا وضعوك في المؤخرة، أو خفي حالك على الخلق، فأنت ممن يتعامل مع الله .

قيل عن عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – : إنما أدخله في العبادة ما رأى من ابنه عبد الملك، وكان من الصلاة والقوة في دين الله بمكان .

والدال على الخير كفاعله، ومن نفس المنطلق قد تجد مخايل النجابة وعلامات القيادة المبكرة في ولدك أو في غيره، فتعاهده، كقوله للصبيان : من يكون معي؟، وتعالوا : أكن أميركم، ومن ذلك ما حكاه نضراً الهلالي قال : كنت في مجلس سفيان بن عيينة، فنظروا إلى صبي دخل المسجد، فتهاونوا به لصغر سنه، فقال سفيان : ﴿ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء: ٩٤] .

ثم قال : يا نضر لو رأيتني ولي عشر سنين، طولي

خمسة أشبار، ووجهي كالدينار، وأنا كشعلة نار، ثيابي صغار، وأكمامي قصار، وذيلي بمقدار، ونعلي كآذان الفار، وأنا أختلف إلى علماء الأمصار، مثل الزهري، وعمرو بن دينار، أجلس بينهم كالمسمار، محبرتي كالجوزة، ومقلمتي كالموزة، وقلمي كاللوزة، فإذا دخلتُ المجلس، قالوا: أوسعوا للشيخ الصغير، أوسعوا للشيخ الصغير.

وعلى كل حال فمن وجد توفيقًا وتسديداً، فالله وفقه ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨] وعليه أن يزداد طاعة وعبودية لله، ويؤدي شكر النعمة التي امتنَّ بها سبحانه عليه ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

إدارة الأزمات

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد :

فالكوارث والمصائب والمحن والمشكلات، يُعبر عنها بالأزمات، وهذه الأزمات متنوعة، فقد تكون اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو أخلاقية أو نفسية، قد تكون على مستوى الفرد أو الدولة، محلية أو عالمية، وهم يقولون: أزم الزمان بالقحط. والأزمة اسم منه، فهو تعبير عن الشدة والعسر والضيق، تود النفوس الخلاص منه، ويسعى المسلم والكافر للتعامل مع الأزمات، كلٌ بطريقته الخاصة.

فالسلوك مرآة الفكر ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الليل: ٤] ، ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾ [الإسراء: ٨٤].

وكثرة الأزمات والمشكلات من سمات الغربة التي

نعيشها، وقد يتولد بعضها من بعض، ويؤثّر بعضها في البعض الآخر، يقولون مثلاً في مصر (٨) مليون يزيد سنهم عن الخامسة والثلاثين لم يتزوجوا بعد، وهذه المشكلة قد تكون بسبب أزمة المساكن، أو ضعف الأجور وانتشار البطالة، وقد تكون بسبب التحلل والاختلاط في التعليم والعمل مما أضعف الثقة، بالإضافة إلى يسر الحرام الذي صار في متناول اليد، فلماذا يلجأ الشاب إلى الزواج بما فيه من واجبات وتكاليف والتزامات أسرية، ينضاف إلى ذلك قلة الوازع الديني...

وأزمة العنوسة هذه يترتب عليها إشاعة الفحش والرذيلة ومحق البركات وتقطيع ما أمر الله به أن يوصل؛ حيث يشيع الحسد والحقد والغل في هذه الأجواء..

أيضًا تذكر الإحصائيات أنَّ (١٣) مليون في مصر يتعاطون الدخان ونصف هذا العدد يقل عمره عن عشرين سنة، والدخان ضار جداً بالصحة، وفيه إضاعة للأموال، وهو من جملة المحرمات والخبائث، والمدخن قد يمنع أسرته حاجتها في سبيل توفير ثمن الدخان، والصغير قد يسرق

ويعق والديه؛ لأجل ذلك، فإذا أضيفت المخدرات إلى الدخان والشيشة التي يتعاطاها الرجال والنساء والكبار والصغار، علمت حجم الكارثة، وكيف يُستمطر البلاء على البلاد والعباد.

وهكذا تخرج من أزمة إلى أخرى على مستوى الفرد والدولة، وقد تتراكم المشكلات بحيث تصبح أزمة مزمنة، شأنها كشأن الأمراض الفتاكة المستعصية تحتاج لطول نفس، وصبر كبير، والعمل الدءوب على تخفيف الأعراض، هذا إن لم نستطع إزالة المرض بالكلية، من باب «ما لا يدرك كله، لا يُترك جله» ونستنقذ ما نستطيع استنقاذه، فما لم نستطع تتميمه (١٠٠٪) لا نتركه صفراً ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ** ﴾ [التغابن: ١٦].

وأحياناً قد يلجأ البعض إلى الهروب من المشكلات والأزمات، وقد يُرجئ حلها، وفريق يتعاطى الخمر والمخدرات لنسيانها، مما يُعقد الأزمة، وتستفحل به المشكلة، ويكون الشأن كمن يعالج الداء بداء آخر، ومن أمثلة ذلك علاج التردي والضعف الاقتصادي بالربويات ﴿ **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا**

﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقد توعَّد سبحانه أهل الطائف بالحرب – رغم صلاتهم وصيامهم – وذلك لتعاملهم بالربا، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

ومن أمثلة ذلك الدخول في حرب أو مجاعة أو كرب فتسمع الاستغاثة ودعاء المقبورين ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢]، والبعض يذهب للمنجمين والعرافين والكهان؛ ليتعرف منهم أيدخل الحرب مع أعدائه أم يحجم ومن المعلوم أنَّ هؤلاء ليسوا بشيء، و «**من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أُنزل على محمد** ﷺ»، وكان الواجب أن نأخذ بالأسباب الشرعية، وأن نتوكّل على خالق الأرض والسموات، وأحيانًا يحدث الانفصال بين البلدين وتنتهي الوحدة وتثور الشتائم، بل

وتدور رحى الحرب بينهما، وكم من صورة من صور الوحدة قامت لتنتهي؛ لأنها لم تقم على كلمة التوحيد، ولا على أساس من دين الله، وافتقدت عناصر البصيرة، والحرص على طاعة الله، قال تعالى: ﴿**وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ [المائدة: ١٤].

وقد يثور النزاع والخلاف بين المسلمين، فتجد التحالفات مع الكفار وطمس معالم الولاء والبراء، ومن المعلوم أنَّ الكفار لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة، وهم ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، وهم لا يحبوننا ولا يألوننا خبالاً، وبعضهم أولياء بعض، وينطبق علينا قول القائل: عندما ترعى الذئاب الغنم، ويكون مثلنا كالمستجير من الرمضاء بالنار.

إنَّ إدارة الأزمات لابد فيها من معرفة بالداء والدواء، فما أنزل الله داءً، إلاَّ أنزل له دواءً، علمه من علمه، وجهله من جهله، إلاَّ الهرم، وقال النَّبيّ ﷺ: «**تداووا عباد الله،**

ولا تتداووا بحرام» وقال أيضاً: «**وما جعل الله شفاء أمتي فيما حرَّم عليها**».

ولابد من الاهتمام بالبدايات؛ فمعظم النار من مستصغر الشرر، وفساد الانتهاء من فساد الابتداء، والعبد إذا فسدت بدايته فسدت نهايته، وإذا فسدت نهايته، فلربما هلك، إلاَّ أن يتداركه الله برحمته، وعلى الكل أن يتحمل مسئوليته في إدارة الأزمة، فالكل راع وهو مسئول عن رعيته ﴿ **فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ** ﴿٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٦]، ﴿ **لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ** ﴾ [الأحزاب: ٨]، فلا يجوز أن نتنصل من المسئولية ونُحمل الحكام التبعة، ولا يحل للحكام أن يعودوا باللائمة في كل أزمة على شعوبهم؛ فالكل موقوف ومسئول بين يدي الله، وبعض التبعات والمسئوليات أعظم من بعض، وكما قال عثمان رضي الله عنه: «إنَّ الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» والخلافة موضوعة لإقامة الدين وسياسة الدنيا به.

وهذا المسلك الذي يعبر عنه البعض بالإيجابية في حل الأزمة والبعد عن السلبية أجدى من الوقوف في مقاعد

المتفرجين، والتعويل على الأعداء والقوى الخارجية، وأنَّ هؤلاء هم السبب في جميع مشكلاتنا، فبدلاً من اتهام النفس، والأخذ بزمام المبادرة طلبًا لعلاج الأزمة، نُعلق المسائل على شماعة الأعداء، ونعيش بنظرية المؤامرة، والبعض يحلو له أن يدور في حلقة مفرغة كالتائه يتساءل هل الاستعمار هو سبب التخلف أم أنَّ التخلف هو سبب الاستعمار، فحظه ونصيبه من علاج الأزمة عبارة عن جدل بيزنطي عقيم، كمن تُحيط به النيران من كل ناحية، وهو جالس مكانه يتسائل لماذا اشتعل المكان، ومثل هذا تلتهمه النيران، وكان حريّ به أن يطلب النجاة والسلامة، وأن يخرج من الواقع السيّئ ما وسعه الأمر؛ فالصحابة ﷺ هاجروا إلى الحبشة وإلى المدينة، وبعضهم دخل في الجوار، ولم يدخل عمر الشام عام الطاعون، ولما قال له أبو عبيدة: أفرار من قدر الله؟ فقال له عمر: نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله.

وعدم الأخذ بالأسباب قدح في التشريع، والاعتقاد في الأسباب قدح في التوحيد، وهذا فيه الرد على تحميل

الأزمات والتبعات على القدر، حتَّى تغنَّى البعض بقوله: قدر أحمق الخطى، سحقت هامتي خطاه... وهذا نوع من السفه والفجور؛ فالاحتجاج بالقدر إنما يكون في المصائب لا في المعائب، والتسليم للقدر يكون بعد بذل الوسع في تعاطي ما أمر الله به من الأسباب، والإيمان بالقدر هو نظام التوحيد، وهو سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبيّ مرسل ﴿ **لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وعلى من أراد علاج الأزمات فعليه بدراستها، والفهم لطبيعتها دون تهويل أو تهوين، ودون إفراط أو تفريط، فإذا توافق الدواء مع الداء تم البرء والشفاء بإذن الله، ولا يليق بنا هنا أن نشخص السرطان على أنه شيء من الصداع، ونكتفي ببعض المسكنات، أو أن ننخدع بصداع المريض عن بقية أعراض السرطان.

وكذلك الأمر بالنسبة للأعداء يلقون شائعة الأمن؛ حتَّى نسترخي ونُلقي سلاحنا، وأحيانًا أُخر يلقون شائعة الخوف، وأن اليهود يملكون السلاح النووي وسيستخدمون سياسة

الذراع الطويلة، وذلك حتَّى نجبن ونستسلم ونخاف ونُكرس للمزيد من الواقع السيِّئ ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥)** ﴾ [آل عمران : ١٧٥] .

في مواجهتنا وإدارتنا للأزمات نحتاج لوضع النقاط على الحروف، ومعرفة الواقع جيداً ثم ضبطه بالضوابط الشرعية، بحيث ينطبق الحكم مع الواقع، والفتوى تُقدر زمانًا ومكانًا وشخصًا، ولابد من رد العلم لعالمه ﴿ **وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾ [النساء : ٨٣]، وقال تعالى : ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧)** ﴾ [الأنبياء : ٧]، فلا بأس بإقامة المراكز البحثية وعمل الدراسات والمؤتمرات لإدارة الأزمات، ولا حرج في الرجوع للمتخصصين لعلاج مشكلات التعليم والإعلام والصحة والبيئة وتربية الأولاد . . . والعلوم النافعة تُؤخذ من كل من أفلح فيها، أما علوم الهداية فلا تؤخذ إلاَّ من الكتاب والسنة .

والحذر كل الحذر من اللوثة المادية، حتَّى صار البعض

في علاجه للأزمات، يُفسر الماء بعد العسر بالماء، ويزيد الطين بلة بنظرياته المادية البعيدة والمنحرفة عن شرع الله، لقد تسلَّط اليهود على فلسطين، وحرص البعض من جلدتنا وممن يتكلم بلساننا على إبعاد معاني العقيدة والإيمان عن الصراع، واكتفى بهذا الشعار المريب «إدارة الصراع العربي الإسرائيلي» مع العلم أنَّ إسرائيل دولة عقائدية في الاسم والرسم، والعَلَم المرفوع عليها، بل ساستها ما يتكلمون إلاَّ بلسان عقائدي، والعرب بلا إسلام ودين يساوون حالة من حالات الجاهلية، وأشخاصهم لا تزيد على صورة أبي جهل وأبي لهب، فما قامت للعرب قيمة إلاَّ بالتمسك بالإسلام.

يتكلم الماديون عن الانفجار السكاني الذي يبتلع التنمية، ولا تقف أمامه موارد الدولة، وبطريقة «بما أنّ إذن»، و«واحد زائد واحد يساوي اثنين»، يقولون علاج هذه الأزمة في تحديد النسل، وهذا فشل في توصيف الأزمة وفي علاجها، كما أنه فشل في العدّ والحساب؛ فالعنصر البشري من أعظم مصادر الثروة، وهذا تجده في الصين وإنجلترا...

والدعوة العامة لتحديد النسل تتصادم مع الهدي النبوي «**تناكحوا ، تناسلوا ؛ فإني مكاثرٌ بكم الأمم يوم القيامة**» وهذه الأمة أمة دعوة، نحتاج فيها لتكثير سواد المطيعين، وفي الحديث: «**وهل تنصرون وترزقون إلاَّ بضعفائكم**».

وأسباب سعة الرزق كثيرة وعديدة؛ كالاستغفار والدعاء والتوكل على الله وتقوى الله، والسعي على الضعفاء، والزواج، ومتابعة الحج والعمرة....وبكل ذلك وردت النصوص الشرعية، فأولى بنا أن نترك الحرام وأن نعمل بطاعة الله؛ حتَّى نأكل من فوق رؤوسنا، ومن تحت أرجلنا، بدلاً من السعي في تحديد نسل الأمة، قال تعالى: ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴿٢٨﴾ ﴾ [التوبة: ٢٨].

إنَّ المؤمن يقول: آمنت بالله وكذبت عيني، ويقدم الموازين الشرعية على الحسابات المادية العقلانية عند المصادمة، وإلاَّ فلا معارضة بين نص صحيح وعقل صريح، قال تعالى: ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ**

بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥]، الشرع الذي يتّسم بصفة الربانية والشمول لكل قضايا الحياة والعموم لجميع البشر في كل زمان ومكان، والجزاء الرادع العادل في العاجل والآجل، والذي يراعي مصالح العباد الحقيقية ... هو القادر على حل جميع الأزمات.

كما أنَّ المسلم الذي ينصبغ بصبغة الإسلام، ويكون على بصيرة من أمره وأمر الناس، ويعيش حياة العزة والكرامة ويتمسك بالحق، ويثبت عليه، ويجاهد في سبيله، هذا المسلم الأوّاب المنيب المحب لربه ولدينه، لا ينكسر أمام الفتن والمحن، ولا ييأس من روح الله، لعلمه أنَّ الله سيجعل من بعد عسر يسراً، وأنَّ النصر مع الصبر، وأنَّ الفرج مع الكرب، لا يقول: هلك الناس، ومن قال ذلك فهو أهلكهم، لا يختزل الدنيا في الأزمة التي يعانيها، فالحياة مستمرة، ومشكلته ليست هي نهاية التاريخ، ولها حل بإذن الله، حتَّى وإن تأذّى وتضرر بطلاق وغيره، فشأنه كشأن النخلة قد تميل مع العواصف، ثم تعود إلى شموخها واستقامتها وثباتها،

وكيف لا وهو يحرص على تقوى الله في عسره ويسره، ومنشطه ومكرهه.

قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝٤** ﴾ [الطلاق: ٤]، بل قد يفرح بالأزمة التي تذكره بربه وبقوله سبحانه: ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ۝٢١٦** ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ﴿ **فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝١٩** ﴾ [النساء: ١٩]، وقال سبحانه عن قصة الإفك: ﴿ **لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ [النور: ١١].

وكان عمر رضي الله عنه يقول: «إذا أصيب العبد بمصيبة كان له فيها ثلاث نعم: أنها لم تكن أكبر مما كانت، وأنها لابد كائنة وقد كانت، وأنها لم تكن في دينه».

إنَّ المؤمن الذي يقدر أسوأ الحالين، ويستحضر مصابه في موت رسول الله ﷺ، ويتذكر الموت والقبور والآخرة، ويجتهد في الدواء، يستغفر ويسترجع.. لا يمكن بإذن الله

أن تعصف به الأزمات، ولا أن تستعصي أمامه المشكلات؛ فله شأنٌ وللناس شأن، وقد جعل الهموم همًا واحدًا، همّ الآخرة فتأتيه الدنيا وهي راغمة بعكس من كانت الدنيا هي همه، ومبلغ علمه، فمثل هذا لا يبالي ربنا في أي أودية الدنيا هلك.

إنَّ المؤمن ينطلق بعلو همته مستعينًا بالله من علاج أزمات نفسه والمحيط الذي يسكنه إلى علاج المشاكل العالمية؛ وذلك لأنَّ الدين الذي يتشرف بالانتساب إليه دين عالمي ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** (١) ﴾ [الفرقان: ١] ، يصف العلاج لمشكلة ضعف المسلمين، وأنَّ القوة لا تقتصر على الإعداد المادي والعسكري، وأعظم صور القوة، قوة الإيمان وعمق اليقين، وأننا متى رجعنا إلى ربنا وديننا وأخلصنا العمل لله، تحقق لنا وعده سبحانه بالنصر والعز والتمكين ﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** (٧) ﴾ [محمد: ٧] ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** (٢٤٩) ﴾

[البقرة: ٢٤٩].

وأن تسلط الكافرين علينا بالقتل والجراح لا بسبب قوتهم، وإنما هو بسبب فشلنا وذنوبنا، قال تعالى عن يوم أُحُد: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] وشرعت الآيات توضح الأسباب: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ثم اختلاف القلوب والتفرق الحاصل في صفوفنا لا سبب له إلاَّ ضعف العقل، قال تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٤]، ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر: ١٤]، فإذا أردنا أن نكون يداً واحدة على عدو الله وعدونا، فلا سبيل إلاَّ إنارة العقول المظلمة بنور الله.

لقد أكمل لنا سبحانه الدين، وأتمّ علينا النعمة فلا يجوز التعويل على الأفراد والهيئات والمؤسسات والنظريات والدراسات التي تصطدم بشرع الله، و إذا كان السلوك مرآة الفكر، فعلى قدر معرفتنا بطبيعة الدنيا، وأنها دار ابتلاء

وامتحان، وأنها لا تصلح عوضًا عن معنى من معاني الآخرة، فلنطلب السلامة، ولنعلم أنَّ أمرًا هذا الموت آخره لحقيق أن يُزهد في أوله، وإن أمرًا هذا الموت أوله لحقيق أن يُخاف من آخره، تفكّر في الصراط والميزان وتطاير الصحف، وعقبة كئود المهبط منها إلى جنة أو إلى نار...

أمور كثيرة تستحق الانشغال والاهتمام، والإيمان بها يضع الأزمات في حجمها وإطارها، وتعلم منها قصر نظر الماديين عندما يتكلمون عن الأزمة الحضارية الكبرى، والأزمة المصيرية، والرؤى المستقبلية لعلاج الأزمات، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

جلد الذات

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد :

فمع التقصير في حق الله، والتفريط في حق النفس والعباد، كان لابد من محاسبة النفوس ومجاهدتها؛ حتَّى تتخلي عن الرذائل وتتحلى بالفضائل، فإذا همَّ الإنسان بذلك وجد من ينازعه ويقول له: لا داعي لجلد الذات وتأنيب الضمير!!، بل قد يخوفونه بأنه سيصاب بحالة اكتئاب، وأن اجتهاده في الصالحات واتهامه لنفسه بالتقصير سينتهي به إلى الخبل والجنون!!.

لقد صار إقصاء الدين عن الحياة، وفلسفة الذنوب والمعاصي سمة من سمات العصر الذي نعيشه، وبينما يحدث التمجيد لمن يُقاتل في سبيل الطاغوت، ويوصف بالبطولة من يموت في سبيل نشر القومية والإلحاد

والديمقراطية.. نجد الاستخفاف والاستهزاء بمن يقاتل في سبيل الله، وقد يرسب الطالب في الامتحان، ويفشل الإنسان في عمله فتتلمس له المعاذير من هنا ومن هناك، فإذا كان متديناً قامت الدنيا ولم تقعد!!.

وبينما تمتلئ المصحات النفسية والمستشفيات العقلية بالنزلاء في أوروبا وأمريكا وتكثُر نِسَب الانتحار في النرويج والدانمارك مع يسر ورفاهية الحياة، ويكثرون من التحليلات والتبريرات، نجد هؤلاء، لو اكتشفوا من يسلك طريق التدين والالتزام، فأصابه جنون أو عاهة نفسية، يُسارعون بالتشفي واتهام الدين!! وقد يسلكون مسلك الناصحين والأطباء العارفين فيُحاولون إبعاده عما هو فيه، وفي أحسن الأحوال يقولون له عشْ حياتك، صلِّ وصمْ، ولا مانع من مشاهدة الراقصة وسماع الأغنية... ساعة وساعة أو نقرة ونقرة، بالضبط كما كان يصنع أهل الجاهلية، عندما يقولون: اليوم خمر وغداً أمر، وكأن هذا هو العلاج والمخرج من البلاء والاكتئاب!!.

ولقد أسرف البعض في الكلام على الشعور واللاشعور، بما لا طائل تحته، ولا فائدة من ورائه، وما يعنينا هو ما جاء في كتاب الله وفي سنَّة رسول الله ﷺ، وكل إنسان بعد ذلك يُؤخذ من قوله ويترك، ولا عبرة بما خالف الحق ﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾** ﴾ [الملك: ١٤].

وبدلاً من استخدام مصطلح «جلد الذات» نحتاج في هذا وغيره لاستخدام الكلمات الشرعية كالمحاسبة والمجاهدة، قال تعالى: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾** ﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]، وقال: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾** ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، وقال: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾** ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال: ﴿ **لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾** ﴾ [القيامة: ١، ٢].

ذكر هنا النفس اللوامة، والنفوس ثلاثة: نفس أمارة بالسوء وهي مأوى الشرور، ومنبع الأخلاق الذميمة، وهذه

النفس يجب مجاهدتها، والنفس اللوامة، دائمًا تلوم صاحبها، لما قلت كذا ولما فعلت كذا، وكلما صدرت عنها سيئة بحكم جبلتها أخذت تلوم صاحبها، وقد أقسم الله بها في كتابه، وقيل: لا تجد المؤمن إلاَّ وهو يلوم نفسه، وأرفع النفوس وأعلاها: النفس المطمئنة، وهي التي انخلعت عن صفاتها الذميمة، وتخلّقت بالأخلاق الحميدة، وهي التي ينادى عليها ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)** ﴾ [الفجر: ٢٧ – ٣٠].

وذكر البعض أنَّ النفوس لها ثلاث قوى، النفس الشهوانية، ويشترك فيها الإنسان وسائر الحيوان، والنفس الغضبية وهي كسابقتها، والنفس الناطقة، وهي التي يتميز بها الإنسان على سائر الحيوان، ولكل واحدة من الثلاث آفاتها وعيوبها التي ينبغي مجاهدتها؛ ولأن الغضب والشهوة والنطق تؤثر في الأخلاق محمودها ومذمومها ومجاهدتها تتم بتعلم الهدى ودين الحق، والعمل بذلك والدعوة إليه، والصبر على مشاق الطريق وأذى الخلق.

إنَّ النفس حرون، وهي طلعة إلى كل سوء، فكيف تُترك وما تهواه، بزعم عدم جلد الذات، قال تعالى: ﴿ **فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾** ﴾ [النازعات: ٣٧ – ٤١]. قال الحسن البصري: «إنَّ المؤمن لا تراه إلاَّ يلوم نفسه دائمًا».

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزِنوا أعمالكم قبل أن توزنوا؛ فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تُحاسبوا أنفسكم اليوم وتزينوا للعرض الأكبر يومئذ تُعرضون لا تخفى منكم خافية».

وقال الحسن: «المؤمن قوَّام على نفسه يُحاسب نفسه لله، وإنما خفّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إنَّ المؤمن يفاجئه الشيء ويعجبه، فيقول: والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من حيلة إليك، هيهات حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا، ما لي ولهذا، والله لا أعود إلى هذا أبداً، إنَّ المؤمنين قوم أوقفهم القرآن،

وحال بين هلكتهم، إنَّ المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتَّى يلقى الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وفي بصره وفي لسانه وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله».

وقال مالك بن دينار: «رحم الله عبدًا قال لنفسه: ألست صاحبة كذا، ألست صاحبة كذا، ثم زمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله عز وجل فكان لها قائدًا».

ما الذي يمنعني من أن أقول: أنا ذلك العبد المذنب المسيئ، خيره سبحانه إلينا نازل، وشرنا إليه صاعد، يتحبب إلينا بالنعم رغم غناه عنَّا، ونحن نتبغض إليه بالمعاصي ونحن إليه محتاجون، وقد أصبحنا في نعم الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه، فلا ندري أيتهما نشكر، أجميل ما يسر أم قبيح ما ستر، نتشرف بالانتساب لهذا الدين، فهل أقمناه في حياتنا الخاصة والعامة، ونقول كل خير في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداع من خلف.

ولو ذكرت أحوال هؤلاء الأفاضل بيننا لافتضحنا كلنا، نطلعنا إلى عيوب الآخرين ونسينا أمثال الجبال في أنفسنا،

وتكلمنا على الوحدة الإسلامية، وقد نكون معاول هدم في جسدها بانحرافنا عن مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ والصحابة الكرام، خف علينا الكلام وثقل علينا العمل، نتعجب من تسلط يهود على البلاد والعباد، والعيب فينا، فما حدث ذلك بسبب قوة يهود، وإنما بسبب ضعفنا، وضعفنا لا بسبب قلة العدد والعتاد، وإنما بسبب البعد عن منهج الله، نلعب ونلهو وننشغل بالمباريات والرقص والغناء في الوقت الذي يُذبح فيه المسلمون وتُنتهك أعراضهم، نومنا طويل في الوقت الذي لا ينام فيه الشيطان، وأولياؤه يعدون العدة للإجهاز على هذه الأمة، ويُنفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله . .

ما الذي يمنعني من وقفة محاسبة ومجاهدة أستحثُّ بها الخطى للحاق بقوم غيّر بهم سبحانه وجه الأرض ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد : ١١]، قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً** ﴾ [آل عمران : ٣٠] وإذا كان الصادقون يُسئلون عن صدقهم ويُحاسبون

عليه فما الظن بالكاذبين ، قال تعالى : ﴿ **لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ** ﴾ [الأحزاب : ٨] .

قال الحسن : « رحم الله عبداً وقف عند همه، فإن كان لله أمضاه، وإن كان لغيره تأخر » .

وقال محمد بن واسع : « لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد أن يجلس إليّ » ؛ فالمحاسبة تدل الإنسان على عيوب النفس، وتمنعه من الغرور .

ورد عن عقبة بن صهبان قال : « سألت عائشة رضي الله عنها عن قول الله عزَّ وجل : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ [فاطر : ٣٢]، فقالت : يا بني، هؤلاء في الجنة، أما السابق فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتَّى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلك . فجعلت نفسها معنا » .

بالمحاسبة يتعرف العبد على عظيم حق الله عليه، وأنه سبحانه أحق أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُشكر فلا يُكفر،

وأن يُذكر فلا يُنسى، فيدفعه ذلك إلى المجاهدة والإنابة والتأسي برسول الله ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلَّى قام حتَّى تفطر رجلاه، فقالت عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذا وقد غُفر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟!، فقال: «**يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً**» [رواه البخاري ومسلم].

وعن حذيفة قال: صليت مع النَّبيّ ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة فقلت: يركع عند المئة، ثم مضى، فقلت يُصلي بها في ركعة، فمضى فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوذ تعوذ، ثم ركع، فجعل يقول: «**سبحان ربي العظيم**»، فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: «**سمع الله لمن حمده**»، ثم قام طويلاً قريباً مما ركع، ثم سجد، فقال: «**سبحان ربي الأعلى**» فكان سجوده قريباً من قيامه» [رواه مسلم].

إنَّ النفس تميل إلى الدعة والراحة، وقد تؤثر الانحطاط والسفول والتدني، والإخلاد إلى الأرض، ولو فقهت لكان منها المجاهدة طلباً لمعالي الأمور.

قيل للبعض إلى كم تتعب نفسك، قال: راحتها أريد.

وقال عيسى عليه السلام: «**طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره**».

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في وصيته لعمر حين استخلفه: «إنَّ أول ما أُحذرك نفسك التي بين جنبيك».

ويحكي أنس رضي الله عنه أنَّ عمر بن الخطاب دخل حائطًا (بستانًا) فسمعته يقول وبيني وبينه جدار، وهو في جوف الحائط: «عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخٍ بخٍ، والله يا ابن الخطاب لتتقين الله، أو ليعذبنك».

وسُئل ابن عمر عن الجهاد، فقال: «ابدأ بنفسك فجاهدها، وابدأ بنفسك فاغزها».

وقال إبراهيم بن علقمة لقوم جاءوا من الغزو: قد جئتم من الجهاد الأصغر فما فعلتم في الجهاد الأكبر؟ قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد القلب.

وقال سفيان الثوري: «ما عالجت شيئًا أشد عليَّ من نفسي، مرة لي ومرة عليّ».

وكان أبو العباس الموصلي يقول لنفسه: «يا نفس، لا في الدنيا مع أبناء الملوك تتنعمين، ولا في طلب الآخرة

مع العُبَّاد تجتهدين، كأني بك بين الجنة والنار تُحبسين، يا نفس ألا تستحين».

وقال الحسن: «ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك».

وقال ميمون بن مهران: «لا يكون الرجل تقيًا حتَّى يُحاسب نفسه محاسبة شريكه، وحتَّى يعلم من أين ملبسه ومطعمه ومشربه».

وقال ابن القيم: «لا يسيء الظن بنفسه إلاَّ من عرفها، ومن أحسن الظن بنفسه، فهو من أجهل الناس بنفسه».

وقال الغزالي: «إنَّ النفس عدو منازع يجب علينا مجاهدتها».

وكان مالك بن دينار يطوف في السوق فإذا رأى الشيء يشتهيه، قال لنفسه: «اصبري، فوالله ما أمنعك إلاَّ من كرامتك عليَّ».

وقال يحيى بن معاذ: «أعداء الإنسان ثلاثة: دنياه، وشيطانه، ونفسه؛ فاحترس من الدنيا بالزهد فيها، ومن الشيطان بمخالفته، ومن النفس بترك الشهوات، فمن صبر على مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه غلبهم وحصل له

النصر والظفر، ملك نفسه فصار ملكًا عزيزًا، ومن جزع ولم يصبر على مجاهدة ذلك غُلب وقُهر وأُسر، وصار عبدًا ذليلاً أسيرًا في يد شيطانه وهواه، وجهاد العدو الخارجي يتطلّب جهاد العدو الباطن، وهو جهاد النفس والهوى؛ فإنَّ جهادهما من أعظم الجهاد».

قال الفيروزآبادي: «والحق أن يُقال: المجاهدة ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس، والمجاهدة تكون باليد واللسان».

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ قال العلماء: ومن جملة المجاهدات، مجاهدة النفس بالصبر عند الابتلاء، ليعقب ذلك أُنس الصفاء، ويُنزع عنه لباس الجفاء».

فأنت بحاجة لمحاسبة ومجاهدة؛ لكونك عبد الله، تدور مع إسلامك حيث دار، ورائدك في هذا وغيره، ما جاء في الكتاب والسُّنَّة، وهذا هو الطريق الموصل إلى رضوان الله تعالى والجنة، وتتحصل بذلك على خير الدنيا والآخرة، وتمتلك ناصية الخير، ويتحقق إنكار الذات، وتسمو بين أقرانك وفي مجتمعك، فإذا سمعت من ينفرك، ويقول

لك: لا داعي لجلد الذات وتأنيب الضمير، فقل: تهمة لا أنفيها، وشرف لا أدعيه، فأنا أتمنى أن أكون من المحاسبين لأنفسهم دون إفراط أو تفريط، ومن المجاهدين في ذات الله وفق معاني الحق والعدل؛ حتَّى تستقيم الأقوال والأفعال والحركات والسكنات، في العسر واليسر والمنشط والمكره والغضب والرضا، حذراً من يوم تقول فيه نفس: ﴿ **يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ** ﴾ [الزمر: ٥٦].

وطلبًا لنعيم لا ينفد وقرة عين لا تنقضي، وحياءاً من رب كريم، بَرٍّ رءوف رحيم، دعانا بإحسانه وإنعامه وأياديه، قلوبنا له مفضية، وسرنا عنده علانية، والغيب لديه مكشوف، وكل أحد إليه ملهوف، عنت الوجوه لنور وجهه، ودلَّت الفطر على امتناع مثله وشبهه، قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ [فاطر: ٤٥] فاغتنموا الفرصة وبادروا بالطاعات، وأقلعوا عن السيئات واثبتوا؛ الأجل نصب أعينكم، واستحيوا من الله حق الحياء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

شهادة حسن السير والسلوك

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد :

فشهادات التزكية وحسن السير والسلوك والمعاملة تُطلب في الزواج، ولتقديمها في المصالح والأعمال، وعلى ضوئها يتم القبول والرفض، والمفترض أن تتم بالحق والعدل، وهي صورة من الشهادة التي نقيمها خالصة لوجه الله، ووفقًا للواقع دون محاباة أو مجاملة، ولو كانت شهادة على النَّفس أو الوالدين والأقربين؛ ولذلك قال النَّبيُّ ﷺ : «**ما أظن أنَّ فلانًا وفلانًا يعلمان شيئًا من ديننا**» لرجلين من المنافقين. وقال – أيضًا – : «**أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فضراب للنساء**».

وسمع ﷺ هند بنت عتبة، وهي تشتكي زوجها أبا سفيان، وتقول: إنَّ أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني وولدي. فقال لها ﷺ: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**».

ومن طالع كتب الحديث والرجال سيجد وصف العلماء للبعض بأنه كذاب، أو سيّئ الحفظ... وليس في ذلك غيبة محرمة؛ إذ الغيبة هي ذكرك أخاك بما فيه ومن خلفه بما يكره، إن كان فيه فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته.

أما إذا دعت الحاجة والضرورة لذكر الوصف المكروه في الشخص كالشهادة عند القاضي مثلاً، فلا حرج ولا حرمة، وأحيانًا تصدر الشهادة ويتم التوثيق ممن هو بحاجة لمن يوثقه ويشهد له بالعدالة، وذلك نتيجة غربة الحال، فقد يُناط إعطاء الشهادة من كافر لمسلم، ومن الفاسق للمطيع، وكل إناء بما فيه ينضح، واللسان ترجمان لما في القلب، وقد قال سبحانه: ﴿ **وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩** ﴾ [القلم: ٩]، وقال: ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ**

﴿مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وبالتالي فلابد من النظر بعين الاعتبار في الشاهد والمزكي والموثق.

وهذه الشهادة قد تختص بجانب من جوانب الحياة أو بعمل من الأعمال: كإتقان للعمل، أو حفظ القرآن مثلاً، وأحيانًا تكون مطلقة، فيُقال: فلان حسن السير والسلوك.

ويشهد الإنسان بما تحققه ورآه ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يوسف: ٨١] ولابد من توافر النصاب الشرعي حتَّى يُؤخذ به، فلو شهد ثلاثة على إنسان بالزنى لم تُؤخذ شهادتهم، ولو كان فيهم أمير المؤمنين، بل يُقام عليهم حد القذف؛ إذْ لابد من توافر أربعة من العدول يشهدون حتَّى يُقام حدّ الزنى، وعمومًا فالجرح والتهمة تتطلب بيّنة أوضح من شمس النهار.

هؤلاء مشهود بحسن سيرهم وسلوكهم:

أفضل الخلق الرسل، وأفضلهم خمسة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، والنَّبيّ ﷺ هو سيد الأولين والآخرين، وقد بعثه

سبحانه رحمة للعالمين، زكَّى لسانه فقال: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣** ﴾ [النجم: ٣]، وزكَّى عقله وفؤاده فقال: ﴿ **مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢** ﴾ [النجم: ٢]، وزكَّى معلمه فقال: ﴿ **عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥** ﴾ [النجم: ٥]، وزكّاه كله فقال: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤** ﴾ [القلم: ٤].

والأنبياء يأتون في المرتبة بعد الرسل، ثم الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وأفضلهم أبو بكر فعمر، فعثمان، فعلي، فسائر العشرة المبشرة بالجنة، وأصحاب بيعة الرضوان والعقبة، وأهل بدر وأحد، وكل صحابي أفضل من كل من جاء بعده، وقد شهد لهم القرآن بالفضل والخيرية، قال تعالى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١١٠] وأثنى عليهم النَّبيُّ ﷺ فقال: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» [متفق عليه].

وأثنى عليهم ابن مسعود رضي الله عنه بقوله: «كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا».

اصطفاهم ربنا جلَّ وعلا لصحبة خير البرية ، فهم خير الخلق بعد الأنبياء والمرسلين، ولا يجوز انتقاصهم أو الطعن والتجريح فيهم «**أصحابي أصحابي، لا تسبوا أصحابي؛ فوالذي نفس محمد بيده، لو أنفق أحدكم مثل أُحُد ذهبًا لم يبلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه**» .

وكان أيوب السختياني يقول: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من صحابة رسول الله ﷺ فاعلم أنهم أرادوا أن يجرحوا شهودنا؛ ليعطلوا العمل بالكتاب» .

والجرح بهم أولى، وهم زنادقة، وذلك لأن الصحابة رضي الله عنهم هم نقلة الكتاب والسُّنَّة، وكلهم عدول، وجهل أحدهم لا يضره كما هو مقرر في المصطلح، وهم الأسوة والقدوة بعد الأنبياء والمرسلين في حسن السير والسلوك .

وكل خير في اتباع من سلف
وكل شر في ابتداع من خلف

وما لم يكن يومئذ ديناً فليس باليوم ديناً، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلاَّ بالرجوع إلى أولها، قال تعالى:

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [التوبة: ١٠٠]، ومتابعتهم فيما أحسنوا فيه، لا في الهفوات التي بدرت منهم؛ إذ لم يكونوا معصومين ﷺ .

والواجب علينا أن نترضى ونترحم عليهم، وأن نمسك عما حدث وشجر بينهم، وأن نعلم أنهم خيار أولياء الله المتقين، فكل من تابع منهج الأنبياء والمرسلين، وكان من أهل السُّنَّة والجماعة، وغلب خيره على شره استحق شهادة تزكية وحسن سير وسلوك، حتَّى وإن بدرت منه بعض الهفوات، إذْ كل ابن آدم خطّاء.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣٢] والسابق بالخيرات هو الذي غلبت حسناته على سيّئاته، وقد ذكر سبحانه أهل الجنة بأحسن ما عملوا وتجاوز عن سيّئته.

والعصمة ثابتة للأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال:

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فلا يصح أن نقدم راقصًا أو مغنيًا أو فيلسوفًا أو أديبًا... على الأنبياء والمرسلين؛ إذ التقديم والتأخير يتم وفق شرع الله ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك: ١٤].

حسن السمت:

ورد في الحديث: «**إنَّ الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة**» [رواه أبو داود وأحمد، وحسَّن ابن حجر إسناده].

ووصف البراء بن عازب رضي الله عنه رسول الله ﷺ فقال: «كان النَّبيُّ ﷺ مربوعًا، وقد رأيته في حلة حمراء، ما رأيت شيئًا أحسن منه» [رواه البخاري ومسلم].

وقال إبراهيم النخعي: «كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى صلاته، وإلى سمته، وإلى هيئته، ثم يأخذون عنه».

وقال الحسن البصري: «كان الرجل يطلب العلم، فلا يلبث أن يُرى ذلك في تخشعه ولسانه وبصره ويده».

وقال أبو العالية: «أرحل إلى الرجل مسيرة أيام، فأول ما أتفقد من أمره صلاته، فإن وجدته يُقيمها ويتمها، أقمت وسمعت منه، وإن وجدته يضيعها رجعت ولم أسمع منه، وقلت هو لغير الصلاة أضيع».

وقال مالك: «إنَّ حقًا على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، وأن يكون متبعًا لأثر من مضى قبله».

وقال عبد الرحمن بن مهدي: «كنَّا نأتي الرجل ما نريد علمه، ليس إلاَّ أن نتعلم من هديه وسمته ودلّه».

فحسن السمت يُكسب المرء الهيبة والوقار واحترام الآخرين وحبهم، وهو دليل كمال الإيمان ورجاحة العقل، وصفاء القلب، ونقاء السريرة، كما أنه من أخلاق الأنبياء والصالحين.

شمول حسن المعاملة:

إنَّ الأمر بحسن المعاملة يتضمن أموراً عديدة منها:

الوفاء بالعهود والعقود مع الله عزَّ وجل ومع الناس، وفيما يتعلق بأمور الناس، فإنَّ حسن المعاملة يقتضي البعد عن الغش والتدليس، والظلم، وعدم إخسار الكيل والميزان... كما يشمل الرفق بمن يتعامل معهم من المسلمين.

ولا شك أنَّ امتزاج أحكام الشريعة بالأخلاق الحسنة يؤدي إلى تنفيذ القوانين والأحكام الإدارية المتفقة مع الشرع، أما فيما يتعلق بأمور الآخرة، فتعني أن يصدق الإنسان في تعامله مع خالقه، وأن يُخلص نيّته في عبادته؛ مصداقًا لقوله ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، فحسن السير والسلوك يشمل جميع أصناف الخلق، وهو معنى يتّسع باتّساع دعوة الإسلام، وهو مطلوب في كل آن وحين في التعامل مع الخالق والمخلوق.

حصلت على شهادة حسن السير والسلوك.. فانتبه!

هذه التزكية، وهذه الشهادة التي حصلت عليها ليست هي نهاية المطاف؛ فقد نحكم للإنسان بالإسلام، ويعلم الله كفره، وليس لنا إلاَّ ذلك، إذْ لم نُؤمر أن نشق عن الصدور أو

أن ننقب عن القلوب، ولذلك نقبل من الناس علانيتهم، ونكل سرائرهم إلى الله هو يتولى السرائر، وقد كان المسلمون يتزوجون من المنافقين، ولم ينهَ النَّبيُّ ﷺ عن ذبائح المنافقين.

وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة رضي الله عنهما: «ناشدتك الله يا حذيفة، أسمّاني لك رسول الله ﷺ منهم» أي من المنافقين، فيقول له حذيفة: «لا، و لا أُزكّي بعدك أحداً».

وروى البخاري عن ابن أبي مليكة قال: «أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ، كلهم يخاف على نفسه النفاق، ما منهم من أحد يقول: إنَّ إيمانه مثل إيمان جبرائيل وميكائيل».

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «أيها الناس، إنَّ الوحي قد انقطع، فمن أظهر لنا خيراً أمنَّاه وقربناه ليس لنا في سريرته، الله يتولاَّه في سريرته، ومن أظهر لنا شراً لم نُؤمنه، ولم نقربه، وإن قال إنَّ نيته حسنة».

ومما أُثر عن المسيح عليه السلام أنه قال: «لا تُكثروا الكلام بغير ذكر الله؛ فإنَّ كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب،

وإنَّ القلب القاسي بعيد عن الله، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، ولكن انظروا فيها كأنكم عبيد؛ فإنَّ الناس رجلان مُبتلى ومُعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية».

وقالوا: «من كانت سريرته كعلانيته فهو عدل، ومن كانت سريرته أفضل من علانيته فهو الفضل، ومن كانت علانيته أفضل من سريرته فهو الجور».

فانتبه واعلم أنَّ الله مُطلع ورقيب، وأنَّ العملة الزائفة لا تروج على الله، ثم هذه الشهادة التي حصلت عليها إن كانت بحق وبصدق، فهي شهادة على ما مضى، وأنت لا تدري بما يُختم لك، وإنما الأعمال بالخواتيم، وبماذا يُنادى عليك غداً، والبعض قد يعمل بعمل أهل الجنة حتَّى ما يبقى بينه وبينها إلاَّ ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، فلا تطمئن ولا تركن، واعمل عمل رجل لا يُنجيه إلاَّ عمله وتوكَّل توكل رجل لا يُصيبه إلاَّ ما كُتب له، واحذر من أن تنقلب على عقبك القهقري أو أن تغتر بثناء الناس عليك، فالعجب آفة، والواجب عليك

أن تغلب جانب الخوف على الرجاء، وأن تجمع الرغبة بالرهبة والإلحاف بالمسألة ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

واشكر الموفق والمنعم، وازدد إحسانًا، فقد كان شداد ابن أوس يقول: «إذا رأيت الرجل يعمل بطاعة الله فاعلم أنَّ لها عنده أخوات، وإذا رأيت الرجل يعمل بمعصية الله، فاعلم أنَّ لها عنده أخوات؛ فإنَّ الطاعة تدل على أختها، وأن المعصية تدل على أختها».

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥ - ١٠] لا تُزكي نفسك وتنتقص الآخرين، فلك في الصالحين أسوة حسنة، كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه - وهو المشهود له بالجنة - يقول: «لو أنَّ إحدى قدماي في الجنة والأخرى خارجها ما آمن مكر الله إنه لا يأمن مكر الله إلاَّ القوم الخاسرون».

وكان البعض يقول: «إذا ذُكر الصالحون فأف لي وتف».

وقال آخر: «إذا قيل ليخرج أسوأ من بالمسجد لبادرتكم بالخروج».

إذا حصلت على شهادة تزكية وحسن معاملة، فقل: اللهم اجعلني خيراً مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون؛ فإنَّك تعلم وهم لا يعلمون، وازدد تواضعًا لجناب الله، نريد شهادة يرضى بها ربنا عنَّا، تكون جواز مرور إلى جنات النعيم، شهادة تزداد بها طاعة وعبودية لله، يتوافق فيها الظاهر مع الباطن والسر مع العلانية، ويُنادى على أهلها غداً ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾ [الحاقة: ٢٤].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تفجير الطاقات الكامنة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد :

فيكثر الحديث عن القوة الكامنة في النفس، وعن الشرارة التي فجّرت الطاقات الكامنة، ويثنون على بعض الأشخاص بأن لديهم القدرة على تفجير الطاقات الشعبية.. وقد لوحظ في حياة الأفراد والدول والجماعات طفرات في السلوك والتصرف نتيجة ظروف وحوادث تستلفت الأنظار، فمثلاً مع مجيئ رمضان تتغير صورة البلاد والعباد، فالكل يحرص على تلاوة القرآن وسماعه، والناس يصومون النهار، ويقومون الليل، وتلمس الحرص على التفقه والسؤال عن الحلال والحرام، وتجنب الكثير من المعاصي والذنوب، فهذا يغض بصره عن النساء الأجنبيات، والمتبرجة تعود للحجاب الشرعي؛ خشية أن ينخدش الصيام، وتارك الصلاة يواظب على الصلاة...

حالة شفافية لا تُخطئها العين في رمضان، وهؤلاء الأشخاص لو قيل لهم في غير رمضان صوموا النهار وقوموا الليل وتعاهدوا المصحف... لقالوا: لا نستطيع ولا نقدر. وكأنَّ هذا الشهر المبارك هو الذي أطلق هذه الطاقات الكامنة؛ فالقدرة والقوة موجودة في النفس ولكنها كانت بحاجة لشرارة تُفجرها.

وقد وردت الأخبار المتواترة تُفيد ظهور المهدي في آخر الزمان، وهو بداية علامات الساعة العشر الكبرى، وأنه يصلحه الله في ليلة يملأ الأرض عدلاً كما مُلئت ظلمًا وجوراً، انتقالة كبيرة تحدث لمحمد بن عبد الله مهدي هذه الأمة – بين عشية وضحاها – فالشخص هو هو ينصلح حاله في ليلة فيملأ الأرض عدلاً.

وربنا قدير يُحيي العظام وهي رميم، ويُكور الليل على النهار والنهار على الليل، لقد دبَّت المعاني الإيمانية في نفوس سحرة فرعون، فتحولوا من طلاب للدنيا يلهثون وراء الحطام الفاني إلى طلاب للآخرة، فيهددهم فرعون

﴿ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ [طه : ٧١]، فيقولون له : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) ﴾ [طه : ٧٢]، خروا لله ساجدين، وقالوا آمنَّا برب العالمين، تغيير عظيم وإيمان عمره لحظات صنع الأعاجيب.

ويوم بدر خرج الصحابة الأفاضل طلبًا للعير، فكان النفير، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ﴾ [الأنفال : ٤٢]، كان عدد المشركين يزيد على ثلاثة أضعاف عدد المسلمين، وقد خرج المشركون في خيلهم وخيلائهم يُحاربون الله ورسوله، ويواجهون المسلمين العزل – إلاَّ من سلاح الإيمان –، وهم يومئذ في قلة عدد وعتاد، وعلى الرغم من ذلك انتصروا على عدو الله وعدوهم، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) ﴾ [آل عمران : ١٢٣]، وقال : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) ﴾ [الأنفال : ٢٦].

وكانت المشاهد الإيمانية التي انطلقت شرارتها في هذه المعركة الفاصلة على الرغم من مفاجئة الحدث، واستعداد المشركين للقتال واستئصال شأفة المسلمين .

ويُحكى أنَّ الخنساء لما مات أخوها صخر رثته وأنشدته بمعلقات الشعر الباكية، وكانت يومئذ شابة، ثم لما أسلمت قُتل أولادها الأربعة يوم القادسية، وعلمت بمصرعهم، فلم تزد على قولها : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته.

إنه الإيمان الذي يصنع الأعاجيب ويُحول الحياة إلى خيرات وبركات وثبات في مواجهة المحن، واستعلاء كريم لا تقوى زخارف الدنيا وزينتها على زحزحته، ولا يخفى عليك مدى محبة الأم لأولادها، الأمر الذي لا ينهض أمامه محبة الأخ، ثم هي كان قد كبر سنها، ورقَّ عظمها حين فُجعت في أولادها الأربعة، قوة وطاقة كامنة في النفوس لا يمكن حسابها بالمعاني المادية ولا يصلح تفسيرها بقوة العضلات والأبدان.

لقد استولى القرامطة على الحجر الأسود وانتزعوه من مكانه أكثر من اثنتين وعشرين سنة، ثم استُعيد لمكانه مرة ثانية، واستولى التتار على بغداد عاصمة الخلافة، ولم يستطع الناس الخروج للمساجد أربعين يومًا، وكانت الجبال من الجماجم والضحايا وأشلاء المسلمين لا يُتصور معها كيف ينتهي هذا البلاء والكرب، وعلى يد من يتم الخلاص من هذه الفتنة، وقيض الله لهذه الأمة أمثال قطز وبيبرس، وتم النصر في عين جالوت، وخرج شيخ الإسلام ابن تيمية بنفسه لقتال التتار، وكان يستحث الأمراء والخلق على الجهاد في سبيل الله.

ويحكون عن صلاح الدين الأيوبي أنه كان قائداً مغموراً لا يُؤبه له، فلما داهم الصليبيون البلاد والعباد، واستولوا على بيت المقدس، ظهرت معالم النخوة والغيرة الإيمانية على صلاح الدين، وكان قد تولى زمام مصر، فقال لوزيره ابن شداد : أما أُسرُّ لك حديثاً، إني أتمنى إن فتح الله عليَّ بيت المقدس أن أركب البحر، أُقاتل كل من كفر بالله؛ حتَّى يظهرني الله أو أهلك دونه.

وقد نصره الله على الصليبيين في موقعة حطين، واسترد بيت المقدس بعد أن احتله الصليبيون أكثر من تسعين سنة.

والناظر في الصحوة الإسلامية في الآونة الأخيرة، هذه الصحوة التي نُشاهدها في امتلاء المساجد بالمصلين وكثرة الحجاج والمعتمرين، والحرص على ارتداء الحجاب الشرعي وإطلاق اللحى، وتعلم العلم الشرعي، والعودة لمثل ما كان عليه النَّبيّ ﷺ والصحابة الكرام رضي الله عنهم ، يحدث ذلك على مستوى الكبار والصغار والرجال والنساء، ولا يكاد يخلو بيت الآن من ملتزمين متدينين ، هذه الصحوة التي أربكت الأعداء وأرهبت الكفار، وكأنها لم تكن في الحسبان، فقد رأوا المارد يستيقظ بعد أن ظنوا أنَّ أمره قد انتهى إلى غير رجعة، فتيقنوا أنها أمة ولأدة لا يُدرى أولها خير أم آخرها خير، شأنها كشأن المطر سرعان ما تتفجر فيه الطاقات والقوى الكامنة.

ولذلك فكثرة المصائب والأحزان، وفجيعتنا في المسلمين هنا وهناك وتسلط الأعداء على رقابنا لا يدعو لييأس ولا لقنوط ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ

الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ [يوسف : ٨٧]، فنحن نستبشر الخير، والفجر قادم بإذن الله تعالى حتَّى وإن طال الظلام، وأنَّ النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأنَّ مع العسر يسرًا، فألم المخاض تعقبه فرحة الولادة، ومقدمات الخير موجودة في هذه الأمة، والمستقبل لدين الله بغلبته وظهوره على الأديان كلها، بذلك نطقت نصوص الشريعة، قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩)** ﴾ [الصف : ٩].

وقد حدث ذلك وسيكون منه ما شاء الله أن يكون، فمن تعجب كيف يُفتح بيت المقدس وتنتصر الأمة على يهود وعلى الروم، من تعجب لورود النصوص بفتح القسطنطينية ورومية (وهي روما عاصمة إيطاليا اليوم) قلنا له الأمور على ما عند ربك، وأخبار الصادق المصدوق لابد وأن تتحقق، ولا تغتر بواقع الأمة المؤلم أو بقوة أعدائها، فهذا الواقع سيزول ويتغير بإذن الله، فالأمة لديها طاقات كامنة هائلة، وفضل الله أعظم، فقد قضى سبحانه أن لا تهلك بسنة عامة؛ لأنها أمة دعوة أُنيط بها إبلاغ الحق

للخلق، والصدمات التي تتعرض لها قد تكون سبب يقظتها وعودتها لدين ربها ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤، ٥].

وما يحدث للمهدي في آخر الزمان، وما يحدث للأمة في رمضان من تحوّل إيماني يقرب لك ما نقول، والواجب علينا أن نغتنم فرصة هذه الأيام المباركات في تفجير الطاقات الكامنة في النفس والأمة عن طريق الاستعانة بالله تعالى في تعلُّم العلم النافع ومتابعته بالعمل الصالح، والقيام بواجب الدعوة إلى الله، والصبر على ذلك كله.

نحن لا نخلق الفرص، وأيضًا لا نضيعها، فإذا رأينا النفوس تهفو لطاعة ربها، والأمة تخطو الخطوات الأولى في طريق العودة لدين الله، فلا أقل من أن نتواكب معها حتَّى تكون الصحوة مستبصرة بمواضع الأقدام ومعالم الطريق، تعرف التوحيد وما يُنافيه من الشرك، والفرائض ما تحل به وما تبطل به، والحلال والحرام، والأمور التي تستصلح بها القلوب كالصبر والشكر والإخلاص، كما تتعرف على الشبهات وطريقة دفعها عن النفس.

وقد حكى لنا القرآن دعوة نبيّ الله يوسف عليه السلام لصاحبي السجن لما سألاه عن الرؤى، لم يبادر بتعبيرها وقدم لهما بقوله: ﴿ **يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠)** ﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠] لابد من ترسيخ معاني الإيمان واليقين في النفوس والتركيز على مسائل العقيدة ودعوة التوحيد، فهي دعوة الأنبياء والمرسلين، ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين، وهي الدعوة الكفيلة بتفجير طاقات الخير والبركة في هذه الأمة، واستعادة المجد والعز المفقود، وردّ البلاد والعباد إلى خالق الأرض والسماء رداً جميلاً.

لابد من مواجهة طوفان الهدم والتدمير، وعلى سبيل المثال لا الحصر (٤,٧) مليون زائر يدخلون أحد المواقع الإباحية أسبوعيًا (٨٣,٥٪) من الصور المتداولة في المجموعات الإخبارية صور إباحية ، (٦٣٪) من المراهقين

الذين يرتادون صفحات ومواقع الدعارة لا يدريه آباؤهم.

وهذه عينة من صور الهدم، ومن المعلوم أنَّ الهدم سهلٌ يسير، والبناء صعب عسير، وما يحدث من إقبال الدنيا على دين ربها لا يخضع لحسابات البشر، فتدبيرهم تدميرهم، وكيدهم يرتد إلى نحورهم، والخير ينبت ويترعرع وسط عواصف الإغواء والإغراء، والأمة تولد من رحم الفتنة، ومسيرة آلاف الأميال تبدأ بخطوة واحدة، وإنَّ الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، وبأقوام لا خلاق لهم.

لابد من إعمام جميع فئات المجتمع بالدعوة سواء كانوا رجالاً أو نساءً كباراً أو صغاراً، والتركيز على كل القطاعات، الأطباء والمهندسين والمدرسين والموظفين والعمال والطلبة .. فالأمة مستهدفة، والدعوة بالسلوك أبلغ من الدعوة بالقول، تلمس ذلك من قول صاحبي السجن ليوسف عليه السلام: ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾ [يوسف: ٣٦]، لقد نطق بعمله وسلوكه وإحسانه، قبل أن يتكلم بلسانه ، قيل: كان يعزي الحزين في السجن، ويعود المريض، ويداوي الجريح، ويُصلي الليل كله، وطهر به

السجن، واستأنس به أهل السجن، فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتَّى يجلس في السجن مع يوسف، وقيل كان إذا ضاق حال البعض وسع له، وإذا احتاج جمع له وسأل له، لما رأيا منه ذلك سألاه عن تعبير الرؤى ووقفا في قوله.

والعلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلاَّ ارتحل، ولنا في الأنبياء والمرسلين أسوة حسنة وقدوة طيبة ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ [الأنعام: ٩٠]، والبعض قد أصبح صورة منفرة للإسلام يصد عن سبيل الله بفعله في الوقت الذي يدعوهم فيه بقوله، فلابد من جهاد كبير ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ومن أبطأ به عمله لم يُسرع به نسبه، ولايزال العبد يتأخر حتَّى يؤخره الله، ولا يجعل الله عبداً سارع إليه كعبد أبطأ عنه، إنَّ الطاقات والقوى الكامنة هائلة.

فلابد من علو الهمة، فدعوتك دعوة عالمية، وأنت تتشرف بالانتساب لخير أمة أُخرجت للناس، ونبيّك ﷺ هو سيد الأولين والآخرين، دعوتك هي دعوة الحق، والمرجع والمآب إلى الله، والأمر إما جنَّة وإما نار، تتطلع لإحدى

الحسنيين، إما النصر وإما الشهادة، تنشد عز الدارين، تقدمك أقوام دان لهم ملك كسرى وقيصر، وسادوا الدنيا شرقًا وغربًا، عمروها بطاعة الله، وكانوا ﴿ **قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴿١٨﴾** ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]، كانوا يصومون النهار ويقومون الليل، فإذا ماتوا أقبل عيد فطرهم، وما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ولا يحزنون على شيء منها أدبر، ولهي كانت أهون في أعينهم من التراب، بهم قام الإسلام، وبه قاموا ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد: ١١] قواهم الله به بعد ضعف، وأعزهم به بعد ذلة، ووحدهم به بعد فرقة، فاحرص على حسن التأسي وإحسان المسير إلى الله.

فكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف

والسلوك مرآة الفكر، فكيف لا تتفجر الطاقات الكامنة وتكون الاندفاعة الإيمانية التي تبني ولا تهدم وتُصلح ولا تُفسد، ولسان حالها ينطق: ﴿ **وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ** ﴾ [طه: ٨٤]، من وضع الجنة والنار نصب عينيه كيف يقنع

بالدونية والانحطاط، وكيف يُكرس للواقع السَّيِّئ، وكيف لا يُسابق الريح في طاعة الله، فما رأيت مثل الجنة نام طالبها، ولا مثل النار نام هاربها.

وإذا كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من خزف يبقى، لكان على العاقل اللبيب أن يُؤثر الخزف الباقي على الذهب الفاني، فكيف والدنيا من خزف يفنى، والآخرة من ذهب يبقى، وليس دون الله منتهى ﴿ **يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾** ﴾ [غافر: ٣٩].

طاقات وقدرات وجدت عند صاحب يس وأصحاب الكهف، ومؤمن آل فرعون، وموجود مثلها عندك بإذن الله، تكون بمثابة القوة الدافعة الواثقة بوعد الله ونصره وقضائه وقدره سبحانه ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا** ﴾ [التوبة: ٥١]، وأنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك وأنَّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، تظهر هذه الطاقات الكامنة بتقوى الله والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾** ﴾ [الطلاق: ٤]، وقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ**

﴿الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨)﴾ [النحل: ١٢٨]، وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

فلو كادتك السماوات السبع والأراضين السبع واتقيت الله لجعل لك من بينهن فرجًا ومخرجًا.

ولا تستبعد أن تنطلق القوى والقدرات بالاستغفار والمحافظة على الأذكار وبدعوات صالحات ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، فادعوه مخلصين له الدين، فقد أمركم بالدعاء ووعدكم الإجابة، وألحوا على الله بالطلب، وخذوا بأسباب إجابة الدعاء، واعلموا أنه لن يهلك على الله إلاَّ هالك، وكان أكثر دعاء رسول الله ﷺ: «**اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» وكان من دعائه ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من الهمِّ والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن وضلع الدّين وغلبة الرجال**»

[رواه أحمد والشيخان].

وأكثر من قولك «**لا إله إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من**

الظالمين» وقدم بين يدي دعائك مثل **«يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»**.

وانطلق بكل طاقتك والأمل يحدوك، حتَّى وإن أخفقت مرة، فليست هي نهاية المطاف، ﴿ **فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦** ﴾ [الشرح: ٥، ٦]، ولن يغلب عسر يسرين، وهو سبحانه الذي يُنزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته.

فإذا رأيت الطاقات تتفجر في النفس وفي الدنيا من حولك، فقل: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ [يونس: ٥٨]، ولتكن في إقدامك وإحجامك وفي انطلاقك وسكونك مُطيعًا لله عاملاً بأمره مستقيمًا على شرعه سبحانه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كلمة أبرك من عشرة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد :

فأفضل الكلام كلام الله تعالى، وهو حبل الله المتين، وذكره الحكيم، وصراطه المستقيم، من عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُديَ إلى صراط مستقيم، لا تشبع منه العلماء، ولا تلتبس به الألسن، ولا تزيغ به الأهواء، ومن تركه وابتغى غير سبيل المؤمنين ولاَّه الله ما تولَّى، وأصلاه جهنَّم وساءت مصيراً.

سمعه الوليد بن المغيرة – المشرك – فقال: والله، إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أعلاه لمثمر، وإنَّ أسفله لمغدق، وما هو بقول بشر.

وأفضل الهدي هدي محمد ﷺ، الذي أُوتيَ جوامع

الكلم، وفواتحه، وخواتمه، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤].

فكما تجد الإعجاز في إيجاز في الآيات البيّنات، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: ٧]، يقول العلماء: فيها أمران ونهيان، وبشارتان، فكذلك الأمر في حديث النَّبيّ ﷺ، تجد المعاني الكثيرة تُصاغ في أوجز عبارة كما في حديث سفيان ابن عبد الله: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»، وحديث: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**».

فإذا نظرت في كلام سلفنا الصالح ومن تابعهم بإحسان وجدت لكلامهم أوفر الحظ والنصيب، مما كان عليه رسول الله ﷺ، فكلماتهم مختصرة موجزة، معانيها كثيرة، وفوائدها عديدة، وذلك بعكس الكلمات التي نتكلم بها، فقد لا تصفو على شيء رغم كثرتها، وإن صفت على معنى مفيد، كان قليل البركة.

انظر لكثير من الكتب الفكرية، والساعات الطوال التي نقضيها في الحديث عن المباريات والموضات، وغلاء الأسعار، وحكايات الأفلام والأغاني، راقب نفسك، فلسانك لا ينكف عن القيل والقال، وكل ذلك ليس لله فيه نصيب.

ولعلَّ هذا المعنى هو الذي استلفت نظر البعض، فسأل أحد العلماء: لماذا كان كلام السلف أنفع من كلامنا؟ قال العالم: لأنهم تكلموا لعز الإسلام، ونجاة النفوس، ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفوس، وطلبًا للدنيا، ولرضا الخلق.

لما سمع زين العابدين عليّ بن الحسين موعظة للحسن، قال: سبحان الله، هذا كلام صدّيق. قيل لعبد الواحد صاحب الحسن البصري: أي شيء بلغ الحسن فيكم إلى ما بلغ، وكان فيكم علماء وفقهاء؟!. قال: كان الحسن إذا أمر بشيء كان أعمل الناس به، وإذا نهى عن شيء كان أترك الناس له.

عنايته بالرقائق والزهد، فإن سأله إنسان غيرها تبرّم وقال: «إنما خلونا مع إخواننا نتذاكر»، غالب مواعظه في ذمّ الدنيا والنهي عن طول الأمل، والأمر بتزكية النفوس، وتصحيح المقاصد والنيّات.

والوعاظ كانوا علماء فقهاء، قال الإمام أحمد - رحمه الله -: ما أحوج الناس إلى قاصّ صدوق في الحديث، إنَّ أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج لكم من بركات الأرض، قيل: وما بركات الأرض؟. قال: زهرة الدنيا.

ولذا كان الحسن يقول: والله ما عجبت من شيء كعجبي من رجل لا يحسب حب الدنيا من الكبائر، وأيم الله إن حبها لمن أكبر الكبائر، وهل تشعبت الكبائر إلاَّ من أجلها، وهل عُبدت الأصنام، وعُصيَ الرحمن إلاَّ لحب الدنيا؛ فالعارف لا يجزع من ذلها، ولا يُنافس بقربها، ولا يأسى لبُعدها.

كلماتهم كانت مُباركة، انظر في وصف البعض للدنيا، وهو يقول: تعبٌ كلها الحياة، الأصل أن تلقاك بكل ما تكره، فإذا لاقتك بما تُحب فهو استثناء.

ويقول الآخر: الدنيا نذالة، وهي إلى كل نذل أميل.

وقال الثالث: ما في الدنيا شيء يسرك إلاَّ وألصق به شيء يسوؤك ...

وكأنها كلمات أشبه بتلخيص للحياة، وبعض الكلمات أبرك من بعض، ولذلك كثيراً ما نسمع على الألسنة : « كلمة أبرك من عشرة » وهذا صحيح، وكلما اقتربنا من عهد النبوة، كانت الكلمات في قمة بركتها، انظر في قول أبي بكر رضي الله عنه : « أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبيّنات من ربكم » وذلك لما اجتمعت قريش على رسول الله ﷺ يؤذونه ، وقوله لعمر رضي الله عنهم يوم الحديبية : « الزم غرزه فإنه على الحق » ، وكان عمر قد تساءل أوَلسنا على الحق؟ أوَليس رسول الله حقًا ؟.

وقوله رضي الله عنه عندما أخبره المشركون عن النَّبيّ ﷺ وأنه أُسريَ وعرج به إلى السماء، فما زاد على قوله: « إن كان قال فقد صدق، فوالله إني لأصدقه في أكثر من ذلك، أُصدقه في خبر السماء » .

ويوم الهجرة كان يتذكر الرصد فيتقدم أمام النَّبيّ ﷺ فإذا تذكّر الطلب، تحول خلفه، يسير تارة عن يمينه، وتارة عن شماله، ويقول: « إن أهلك أهلك وحدي، وإن تهلك تهلك معك الدعوة » .

ولما ارتدّ من ارتدَّ من العرب، قال: «أينقص الإسلام وأنا حيّ».

ويأتي من بعده عمر رضي الله عنه يقول: «إني لا أعد للحادث الذي يحدث سوى طاعة الله ورسوله هذا هو الذي بلغنا به ما بلغنا». وقال لأبي عبيدة رضي الله عنه: «إنَّا كنَّا أذل قوم، فأعزنا الله بهذا الدين، فمهما نطلب العز في غيره أذلّنا الله».

وكان أبو عبيدة رضي الله عنه يسير وسط الجيش ويقول: «رب مبيض لثوبه مدنّس لدينه، رُبَّ مُكرم لنفسه وهو لها مهين، بادروا السيّئات القديمات بالحسنات الحديثات».

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «أدركنا الناس ورقات لا شوك فيه، فصاروا شوكًا لا ورق فيه».

وكان إذا رأى جنازة يقول: «اغدوا فإنَّا راحون، وروحوا فإنَّا غادون، موعظة بليغة وغفلة سريعة، يروح الأول ولا يعتبر الآخر».

مات مصعب بن عمير رضي الله عنه يوم مات وهو يردد: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ

انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

مواقف هادية، وكلمات من نور، ونفسي بالنسبة لخبيب بن عدي رضي الله عنه عندما أخذه المشركون لقتله، سألهم المهلة حتّى يُصلي لله ركعتين، لم يطلب «فرخة» ولا «شيكولاته» يأكلها، وكانت أمنيته في هذه اللحظات أن يُبعث بسلامه لرسول الله ﷺ، لا أن يرى زوجة أو ولداً، قال: «اللهم إني لا أرى إلاَّ وجه عدو، ولم أرى أحداً يُقرئ رسولك مني السلام؛ فأقرأه مني السلام»، ثم وقع خبيب صريعًا وهو يردد:

ولستُ أُبالي حين أُقتلُ مسلمًا
على أي جنب كان في الله مصرعي
فذاك في ذات الإله وإن يشأ
يُبارك على أوصال شلوٍ ممزع

فلم يلطم خداً، ولم يشق جيباً، ولم يدعُ بدعاء الجاهلية.

وهكذا لو تتبعت حياة هؤلاء الأفاضل، لوجدت بركة واضحة في كلامهم وفي كل شيء، وهذه البركة من الله، ولا تطلب إلاَّ بطاعته سبحانه، وقد وردت الآيات تصف بعض الأزمنة والأمكنة، والأشخاص، والأشياء المباركة.

ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٦].

وقال سبحانه وتعالى عن نبيه عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ [مريم: ٣١].

وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾﴾ [ق: ٩].

وقال سبحانه عن كتابه: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وقال: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء: ٥٠].

والنصوص في هذا المعنى كثيرة توضح أنَّ طاعة الله

سبب حلول النماء والزيادة والبركة ، ومن جملة ذلك بر الوالدين، وصلة الأرحام، وأنَّ المعصية بضد ذلك، ففي الحديث : «**الحَلف منفقة للسلعة ، ممحقة للبركة**»

[رواه البخاري] .

والدعاء من أعظم أسباب حلول البركات، ففي دعاء القنوت الذي علّمه النَّبيّ ﷺ لسبطه الحسن: «**اللهم بارك لنا فيه، وأعطنا خيراً منه**» ، وإذا شرب لبنًا قال: «**اللهم بارك لنا فيه، وزدنا منه**» ، وإذا رأى من نفسه أو ولده، أو ماله، أو غير ذلك شيئًا فأعجبه، وخاف أن يصيبه بعينه، أو يتضرر بذلك قال: «**اللهم بارك فيه ولا تضره**» . .

والأدعية كثيرة في هذا المعنى، وإذا كانت البركة من الله فلا يجوز طلبها من المقبورين، كما لا يجوز التبرك بالأشجار والأحجار، إلاَّ الحجر الأسود، وقد كان الصحابة يتبركون بفضل وضوء النَّبيّ ﷺ وطيبه، ونحو ذلك.

والناظر سيجد أنَّ البركة تتناقص من جيل إلى جيل، ففي أحاديث أمارات الساعة: «**لا تقوم الساعة حتَّى**

يتقارب الزمان، فتكون السنة كالشهر، ويكون الشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كاحتراق السعفة» [رواه أحمد والترمذي، وقال ابن كثير: إسناده على شرط مسلم].

وفي الحديث الذي رواه البخاري: «**لا تقوم الساعة حتَّى يتقارب الزمان**».

فإذا كنَّا نعاني من قلَّة البركة في الأقوال والأفعال، فهذا الأمر يحكي لنا التناسب الواضح بين حالة الكون من حولنا وبين ما نحن عليه من قلَّة التقوى.

وقد بيّن النَّبيُّ ﷺ أنَّ هذه البركة المنزوعة تُرد قرب قيام الساعة، وذلك بعد إهلاك الدجال، ويأجوج ومأجوج ببركة دعاء المسيح عليه السلام، قال ﷺ: «**ثم يُرسل الله مطراً، لا يُكنُّ منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتَّى يتركها كالزلقة، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة...**»

[الحديث رواه الجماعة].

فاللهم بارك لنا في أقوالنا وأفعالنا، وبارك لنا فيما رزقتنا، وقِنا عذاب النار.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

سماحة الإسلام
بعيداً عن الإفراط والتفريط

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد :

ففي مواجهة اتهام الإسلام والمسلمين بالإرهاب والتطرف، انبرى البعض يُفند الشبهات، ويُوضح سماحة الإسلام، وأُقيمت مؤتمرات وندوات وطُرحت كتب ومقالات للدفاع عن دين الله، وكأنه أريد لنا أن نقف في موقف الدفاع عن أنفسنا، وأن ندخل جميعًا في قفص الاتهام!! وأن يصبح أعداء الإسلام والمسلمين هم القضاة على هذه الأمة، وأن ننشغل عن دعوتنا وعن إبلاغ الحق للخلق بهذا الحادث الذى ا تُكب هنا، أو هذه التُهمة التي

وُجهت هناك، ناهيكم عن الهزيمة النفسية، ودخول الكثرة الجحور.

وصار الكل وكأن على رأسه بطح من جراء الاتهام بالإرهاب والتطرف، وسوء الرد عليه، ولذلك كان لابد من عرض موضوع السماحة بعيداً عن الإفراط والتفريط.

القرآن الكريم يأمر المسلمين بالسماحة مع مخالفيهم:

قال تعالى مُخاطبًا نبيّه ﷺ والمسلمين في شخصه الكريم: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩)** ﴾ [يونس: ٩٩].

وقال جلَّ وعلا: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)** ﴾ [الكافرون].

وقال سبحانه: ﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ** ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وفي مواجهة محاولات أهل الكتاب إرجاع المسلمين عن

دينهم، يقول تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

النَّبيُّ ﷺ يأمر أمته بالسماحة ويُطبق ذلك على نفسه،

قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله، قال: «**الحنيفية السمحة**» [رواه أحمد والبخاري] والمراد بالأديان الشرائع الماضية قبل أن تُبدّل وتُنسخ، والحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام، والسمحة السهلة.

وفي الحديث: «**اسمح يُسمح لك**»

[رواه أحمد وصحح أحمد شاكر إسناده].

وورد في الحديث: «**أفضل المؤمنين رجل سمح البيع سمح الشراء، سمح القضاء، سمح الاقتضاء**» [رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات].

ولما قيل للنبيّ ﷺ: ما الإيمان؟ قال: «**الصبر والسماحة**» [رواه أحمد وأصله عند مسلم].

ويوم الحديبية كتب عليّ بن أبي طالب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله. فقالوا: لو علمنا أنَّك رسول الله لم نمنعك ولاتبعناك، ولكن اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله. فقال النَّبيُّ ﷺ: «**أنا والله محمد بن عبد الله، وأنا والله رسول الله**» فقال عليٌّ: والله لا أمحه أبداً. قال: «**فأرنيه**» قال: فأراه إياه، فمحاه النَّبيُّ ﷺ بيده، فلما دخل ومضت الأيام أتوا عليًا فقالوا: مُرْ صاحبك فليرتحل، فذكر ذلك عليٌّ رضي الله عنه لرسول الله ﷺ فقال: «**نعم**» فارتحل.

[رواه البخاري ومسلم].

التسامح من أعظم أسباب دخول الناس في هذا الدين:

صالح أبو عبيدة بن الجراح – أمين هذه الأمة – أهل الشام على الإبقاء على معابدهم من الكنائس والبِيَع داخل المدن وخارجها مصونة لا يُهدم منها شيء، ولا يُغير من معالمها شيء، وصالحهم على حقن دمائهم، وحفظ حياتهم، وصالحهم على الدفاع عنهم وحمايتهم من اعتداء من يهمُّ بالاعتداء عليهم، وصالحهم على أنَّ من قاتلهم أو

ناوأهم وجب على المسلمين أن يُقاتلوه دونهم، ويدفعوه عنهم بقوّة السلاح.

فهل هذا المبادئ يُمكن أن تُصور على أنها استكراه للناس للدخول في دين الله، أو يُشتمّ منها رائحة غزو مادي لنهب ثروات أو جمع أموال؟!، لقد رأى أهل الذمة في هذه المصالحات معاني العدل والرحمة، ولمسوا وفاء المسلمين لهم بشروطهم، فما كان منهم إلاّ أن صاروا عونًا للمسلمين على أعدائهم، ودخلوا في دين الله أفواجًا.

وبهذه السماحة فُتحت بلاد الشام، وكم من بلد فُتحت بالقرآن، كدول أفريقيا وجنوب شرق آسيا، وبلاد الهند، وذلك لما لمسه أهل هذه البلاد من سماحة الإسلام في تعاملهم مع التجار، بل كانت المرأة من أهل الشام تأمن على نفسها بحضرة الصحابة أكثر من أمنها على نفسها بحضرة أبيها.

إن المتتبع سيجد أنَّ المسلمين هم أحرص الناس على الرفق والسماحة في تنفيذ العهود والمصالحات، وأنَّ هذا من

أعظم أسباب سرعة انتشار الإسلام، ولم تكن هذه السماحة هي منهج أبي عبيدة وحده ﷺ ، بل كانت المنهج الذي أقام الإسلام عليه دعائمه، مُتمثلاً في الكتاب والسُّنَّة.

حُكي أنَّ القائد قُتيبة بن مسلم لما دخل سمرقند، اشتكاه أهلها إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – فرفع المسألة إلى القاضي المسلم، وكان قتيبة قد تُوفيَ وتولى نائبه، فحكم القاضي بخروج الجيش المسلم من سمرقند، حتَّى يُتم دعوة وإعلام أهلها، وخرج الجيش المسلم، فما كان من أهل سمرقند إلاَّ أنْ أعلنوا إسلامهم، ودخلوا في دين الله، لقد رأى أهل الذمة وغيرهم وفاء المسلمين لهم بشروطهم، وشاهدوا حسن سيرتهم، وجربوا معاملتهم؛ فوقفوا معهم مخلصين.

سماحة المسلمين لا مثيل لها عند غيرهم:

أين احترام اليهود للعهود والمواثيق – قديمًا وحديثًا – لقد نقضوا العهد والميثاق مع الأنبياء والمرسلين، والتاريخ شاهد على أفاعيل بني قينقاع وقريظة والنضير مع رسول الله

ﷺ، والدُّنيا تشهد على المجازر والمذابح التي يرتكبها يهود في حق الفلسطينيين .

وما الذي فعله التتار في بغداد والعالم الإسلامي!! لقد مُنع الناس من الخروج إلى المساجد طيلة أربعين يومًا، وكانت أشلاء وجماجم المسلمين أشبه بالجبال.

وتاريخ الحملات الصليبية ومحاكم التفتيش مع المسلمين يندى له الجبين، بل وتأييد الغرب لليهود وغيرهم خير رد على دعاواهم الزائفة ومناداتهم بحقوق الإنسان والحرية والعدل والمساواة !!، لقد استُبيحت حرمات المسلمين، وصارت دماؤهم هدرًا هنا وهناك.

ولقد أباد الشيوعيون جيلاً مسلمًا في صحراء سيبريا، وكانوا يحكمون بالإعدام على من يحمل مصحفًا، ويتهمون من يتعلم اللغة العربية.

فإذا ما انتقلت إلى الدولة الكمالية الأتاتوركية، رأيت إلغاء الخلافة، وتحويل البلاد إلى العلمانية، وتحويل المساجد إلى متاحف، وتحويل اللغة العربية حتَّى في الأذان إلى اللغة التركية..

وانظر إلى صنيع الهندوس مع المسلمين، وقلّب صفحات

الزمان والمكان ستُدرك حتمًا أنَّ سماحة الإسلام والمسلمين لا مثيل لها عند غيرهم من البشر.

هل من الممكن أن يصطلح كل فريق على حقه:

إنَّ سماحة الإسلام كمسألة دلَّ عليها الشرع والواقع، لا تقبل المزايدة بما عليه الأمم المتحدة من شعارات وهتافات، ولا تنخدش بانتقاص الغرب والشرق لسلوكيات بعض المسلمين هنا أو هناك، فكل إنسان يُؤخذ من قوله ويُترك إلاَّ رسول الله ﷺ، والوقت وقت غربة وجهالة، وعلينا جميعًا أن نحتكم لكتاب الله ولسُنَّة رسول الله ﷺ، دون تغيير أو تبديل لشرع الله ﴿ **قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ** ﴾ [يونس: ١٥] فليس من السماحة أن نُحل الحرام أو نُحرم الحلال، أو أن نتهاون في تطبيق أحكام الشريعة، قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ** ﴾ [النحل: ١١٦]، وقال سبحانه: ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾** ﴾ [النساء: ٦٥].

وليس من السماحة أن نأخذ ما يوافق الهوى، أو أن نتبع زلأت العلماء، فمن تتبع رخص المذاهب تجمّع فيه الشر كله، فكيف بمن يتتبع زلات الخلق، ولكل جواد كبوة، ولكل عالم زلّة.

وليس من السماحة أن نرضخ لأعداء الإسلام ونظمهم وقوانينهم وفلسفاتهم ومعتقداتهم المخالفة لدين الله، قال تعالى: ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال سبحانه: ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ** ﴾ [الشورى: ٢١].

وليس من السماحة أن نغير مفهوم الولاء والبراء؛ فأوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، ولا أن أطالب بحلق لحية، وتطالب المسلمة بخلع الحجاب، وبطمس شعائر الإسلام الظاهرة بزعم السماحة، فهذه ميوعة ننأى بأنفسنا عنها، ولا يجوز إرضاء المخلوقين بسخط الخالق جلَّ وعلا.

لا معارضة ولا مناقضة:

المسلم مأمور بطلاقة الوجه واستقبال الناس بالبشر،

ومبادرة الناس بالتحية والسلام والمصافحة، وحسن المحادثة، وحسن المصاحبة والمعاشرة، والتغاضي عن الهفوات، واستقبال كل ما يأتيه من قبل الله عز وجل بغاية الرضا ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩]، يدفعه لذلك الرغبة فيما عند الله، والرهبة من عذابه سبحانه والإيمان بقضائه وقدره جلَّ وعلا، ولذلك تظهر السماحة في أقواله وأفعاله، وهذه السماحة لا رياء فيها ولا سمعة، ولا هي لإرضاء الكفرة على حساب تبعيض الدين وتجزيئه، فليس في دين الله ما نتوارى به خجلاً، ولا أن نصبح به مرتعًا لدعوات الآخرين وعقائدهم، بل الواجب علينا أن ننهض وأن ندعوهم ونُعبدهم لله رب العالمين، كما دعا النَّبيُّ ﷺ هرقل وغيره، وقال له: «**أسلم تسلم يُؤتك الله أجرك مرتين**» [رواه البخاري].

لا نقبل ذم من قاتل يهود لدفعهم عن أرضه، ولا التشهير بمن جاهد أعداء الإسلام والمسلمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا فليس ذلك تطرفًا ولا إرهابًا مذمومًا.

ولا معارضة بين التزوج من كتابية وإحسان معاشرتها وبغض ما هي عليه من دين باطل، ولا تناقض بين العدل مع الخلق وبُغض كفرهم، كما فعل عبد الله بن رواحة مع يهود عندما ذهب يخرص نخلهم وأرادوا رشوته، وثبت أنَّ النَّبيَّ ﷺ عاد الغلام اليهودي ودعاه وقال له أسلم، فقال له أبوه: أطعْ أبا القاسم.

وكان ﷺ يبيع ويشتري مع اليهود، ودُعي لطعام يهود المدينة، ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي، ولا تعارض بين ذلك كله وبين بغضهم وعدم موالاتهم قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** ﴾ [المائدة: ٥١].

ولما أهدى النَّبيُّ ﷺ حلة سيراء لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أهداها عمر لأخ مشرك له بمكة. وبوّب أبو عمر بن عبد البر «باب إهداء الأخ المشرك وإن كان حربيًا»، وعمر رضي الله عنه هو الذي قال للنبيِّ ﷺ يوم بدر: أرى أن تدفع لي فلانًا، وتدفع عقيلاً لعليّ، وفلانًا لحمزة؛ حتَّى نقتلهم، وحتَّى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين.

لقد تمكَّن النَّبيُّ ﷺ من المشركين يوم الفتح، وقال لهم: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء، لا تثريب عليكم بعد اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين**».

وناظر نصارى نجران، ونزل عليه قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾**﴾ [آل عمران: ٦٤]، وجاور يهود المدينة، وعاهدهم فنقضوا عهده، وما دعاهم لصداقة ولا لزمالة أديان، فليس من السماحة في شيء أن نُخالف هدي نبيّنا ﷺ، وكيف نركن إلى من حذَّرنا الله منهم فقال: ﴿**وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ**﴾ [هود: ١١٣] وقال فيهم: ﴿**وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا**﴾ [البقرة: ٢١٧].

وكيف نصادق ونوالي من قال سبحانه فيهم: ﴿**هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ**﴾ [آل عمران: ١١٩]، وكيف نطمئن لقوم ﴿**يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ**

﴿لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

كيف نُخالف كتاب ربنا وسُنَّة نبيّنا ﷺ ونُكذب الواقع من حولنا ونُحمّل السماحة ما لا تحتمل؟!!.

نسأل الله أن يهدي ضالّ المسلمين، وأن يردنا إلى دينه رداً جميلاً، وأن يُبرم لهذه الأمة أمر رشد يُعز فيه أهل طاعته، ويُذل فيه أهل معصيته، ويُؤمر فيه بالمعروف، ويُنهى فيه عن المنكر، هو سبحانه ولي ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

التدين والالتزام

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد :

فقد شاعت في عصرنا بعض المصطلحات، مثل التدين والالتزام، والأخوة والأخوات، وصارت تُطلق في مجتمعاتنا على أصحاب اللحى والجلابيب.

فالرجل الذي يستخدم السواك ويُقصّر ثوبه فوق الكعب، فهو الأخ المتديّن الملتزم، والمرأة التي ترتدي الحجاب أو النقاب، يُطلق عليها وصف الأخت الملتزمة، وفي المقابل طائفة أخرى ادَّعت التَّطور والتحضر والتقدم والعصرية والتنوير... وصفت أصحاب اللحى والنقاب بالتطرف والتحجر والتخلف والرجعية والجمود والعودة لعهود الظلام... وسائر نعوت التنفير والتشويه والتشهير.

ونحن لا ننكر شيوع الألقاب في السلف بلا نكير كالمهاجرين والأنصار، وأصحاب بيعة العقبة وبيعة الرضوان، وأهل بدر وأهل أُحُد، والبحرية ثم السفينية، وأهل السُّنَّة وأصحاب الحديث وأهل الأثر ... ولكنها تسميات لم تكن بديلة عن كلمة الإسلام.

ولا نُنكر وقوع الخلاف بين الأفاضل فقد كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يتناظران في المسألة، ما يقصدان إلاَّ الخير، واختلفت أم المؤمنين عائشة مع معاوية رضي الله عنهما في هل رأى النَّبيّ ﷺ ربه ليلة أُسري به أم لا، وتنازع الإمام أحمد مع الإمام الشافعي في تكفير تارك الصلاة تكاسلاً ..

حدث ذلك وغيره مع بقاء الأُلفة والأخوة الإيمانية، ولم يرجع البعض على البعض الآخر بالتكفير، بل وفي حديث: «**لا يصلين أحدكم العصر إلاَّ في بني قريظة**» صلَّى البعض العصر في الطريق لما أدركه الوقت، وصلَّى الفريق الآخر عندما وصل إلى بني قريظة، وصوَّب النَّبيُّ ﷺ الفريقين ثم صفَّهم صفًا واحداً، وقاتا بهم الأعداء.

وحسبنا أن نُفرق بين الخلاف السائغ المعتبر الذي لا يُفسد للود قضية، وبين الخلاف غير المنجبر.

وكان ابن تيمية – رحمه الله – يقول: «نعم من خالف الكتاب المستبين والسُّنَّة المستفيضة خلافًا لا يعذر فيه، فهذا يُعامل بما يُعامل به أهل البدع».

والمسلم يحذر الغلو في التكفير كما يحذر أن يُدخل في الدين من ليس منه، فمن قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما، إنْ كان كذلك وإلاَّ صار عليه (أي رجع عليه).

والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها، فالحق مقبول من كل من جاء به، والباطل مردود على صاحبه كائنًا من كان، والحق ما وافق الكتاب والسُّنَّة، والباطل ما خالف هذا المنهج القويم، وكل إنسان يُؤخذ من قوله ويُترك إلاَّ رسول الله ﷺ، ثم التعصب والاجتماع على الحق محمود، أما التعصب على الباطل فهو مذموم ويُقال لأهله دعوها فإنها منتنة.

فلا يجوز أن نتحزب على غير ذات الله، أو أن نجمد على مذاهب تُخالف ما جاء في كتاب الله وفي سُنَّة رسول الله ﷺ، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما لمن خالفه : « أقول قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر، يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء » .

ولما اعترض رجل الإمام الشافعي، بحديث رسول الله ﷺ، وقال للإمام: أتأخذ به؟ ، قال له الشافعي – رحمه الله– : على العين والرأس، كيف لا آخذ بحديث رسول الله ﷺ، أرأيتني خارجًا من كنيسة، أرأيتني مرتديًا زنارًا .

فليكن هذا هو منهجنا، الكتاب والسُّنَّة بفهم سلف الأمة ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾ [النساء: ٦٥]، ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا (٣٦) ﴾ [الأحزاب: ٣٦] ، وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن

كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩] وفي الحديث المتفق عليه: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**».

ومن خلال هذا المنهج نتعرف على معاني التدين والالتزام والأخوة والتطور والتحضر والتقدم، ومفهوم التخلف والرجعية والتطرف، بحيث نُحقّ الحق، ونُبطل الباطل، ويصطلح كل فريق على حقه، بعيداً عن أجواء المشاحنة والخلاف التي تورث الفشل بين أبناء الأمة الواحدة.

والعدل أساس الملك، وبه قامت السماوات والأرض ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ [المائدة: ٨].

والذي يستصحب الضوابط الشرعية، وينظر في واقع هذه الأمة سيجد أنَّ الناس قد ورثوا الإسلام، وجهلوا معانيه، ولم تقم عليهم الحجة الرسالية قياماً يتأكد معه أن يحيى من حيَّ عن بيّنة، وأن يهلك من هلك عن بيّنة،

وهذه الحجة يُقيمها عالم، أو ذو سلطان مطاع، بحيث تنتفي الشبهات، وتدرأ المعاذير، فالوقت الذي نعيشه وقت غربة وجهالة، والإنسان يدخل في الإسلام بنطقه بالشهادتين باتفاق العلماء، ثم يُؤمر بالتزام أحكام الشرع التكليفية، ويكفر بجحود الواجب أو باستحلال المحرم.

والصلاة أعظم واجبات الإسلام العملية، فمن جحد فرضيتها أو استخف بحقها أو استهزأ بأهلها فهو كافر وخارج من الملة، أما من تركها تكاسلاً فإيمانه موضع نزاع بين العلماء.

ولا ريب أنَّ اللحية وتقصير الثوب، واستخدام السواك، والحجاب، والنقاب... من الدين، ومن التزم ذلك فهو على طاعة وعبودية، فقد وردت الأخبار «**أطلقوا اللحى، واحفوا الشوارب، خالفوا المجوس**» وفي بعضها «وفوا»، «أوفوا»، «وفروا»، «أرخوا» بحيث تترك على سجيتها حتَّى تكثر وتغزر، وكانت لحية النَّبيّ ﷺ كثّة عظيمة الطول، ولم يؤثر أنه أخذ من طول لحيته ولا من عرضها، إلاَّ

ما رواه البخاري عن ابن عمر أنه كان إذا اعتمر أخذ ما زاد على القبضة.

وفي الحديث: «**ما دون الكعبين فهو في النار**»، وفي الحديث: «**لا ينظر الله لمن جرَّ ثوبه خيلاء يوم القيامة**».

وورد بشأن السواك: «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة**».

والحجاب متفق على مشروعيته، والأدلة كثيرة من الكتاب والسُّنَّة: ﴿**وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ**﴾ [الأحزاب: ٥٣]، ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ**﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وقد حكى ابن رسلان اتفاق العلماء على أنه لو كثر الفساق أو خيفت الفتنة يجب على المرأة تغطية الوجه والكفّين.

وقال الحافظ ابن حجر: لم يزل الأمر منذ عهد رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا - زمنه هو - على خروج النساء في الأسواق وإلى الأسفار منتقبات.

وأدلة تغطية الوجه والكفين كثيرة وعديدة، فهو مشروع باتفاق العلماء، والخلاف بينهم في هل هو واجب أم مستحب، ومع إقرارنا بأنَّ هذه المسائل المذكورة تديُّن والتزام، إلاَّ أننا نرفض قصر مفهوم المتدينين الملتزمين على من تلبَّس بها؛ فدائرة الدين أوسع من ذلك وأشمل.

وقد ذكر سبحانه أقسام هذه الأمة المرحومة فقال: ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ [فاطر: ٣٢].

والسابق بالخيرات يدخل الجنة لأول وهلة، وهو من غلبت حسناته على سيِّئاته، والمقتصد من تساوت حسناته مع سيِّئاته ؛ وهذا يوقف به بين الجنة والنار ما شاء الله أن يوقف به، ثم يدخل الجنة، أما الظالم لنفسه فهو من غلبت سيِّئاته على حسناته، وهذا يقع تحت المشيئة، إن شاء الله عذبه، وإن شاء غفر له، وإذا دخل النار لا يدخلها دخول الكفار، ولا يعذب عذاب الكفار، ولا يخلد فيها خلود الكفار ﴿ **أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾** ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

وكل شيء يوضع في الميزان، فالملتحي والمُنقَّبة ملتزم مأجور بإذن الله في ذلك، فإن عقَّ والديه فهو مأزور، وتديّنه والتزامه وأخوّته ناقصة بحسب ذلك.

وعلى العكس والنقيض، فالسافرة وحليق اللحية المسلم، إذا كان باراً بوالديه فهو متدين وملتزم ومأجور بإذن الله على بره، فعادت الأمور على الطاعة والمعصية، قال تعالى: ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴿٤٧﴾** ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

فربنا جلَّ وعلا لا تضيع عنده موازين الذر، ويا ليتنا نستخدم المصطلحات الشرعية كالمسلم والعاصي والكافر والمنافق والبرّ والفاجر.

حتَّى تتجنب الهُلامية والمحاباة على حساب الحق، فمن أطلق لحيته مثلاً، صار أخًا ملتزمًا متدينًا حتَّى وإن كان عاقًا، بينما يصبح الحليق البار، وكأنه لا دين ولا التزام ولا أخوة له !!! والظلم ظلمات، والواجب أن يُقال للأول

أصبت في إطلاق اللحية، وقصّرت في عقوق الوالدين، ويُقال للثاني: وافقت الدين في برّك بوالديك، وخالفته في حلق لحيتك، والميزان هنا وهناك، ميزان واحد وهو الكتاب والسُّنَّة.

ومن هنا تعلم الردّ على من أطلق نعوت التنفير كالتطرف والتخلف والرجعية، ووصف بها من طالب بتطبيق الشريعة وأطلق لحيته... يُقال لهم راجعوا إسلامكم – إن كانوا مسلمين – فالإسلام الذي تُدينون به وتزعمون التزامه هو الذي يأمركم بتطبيق الشريعة وتقصير الثوب والنقاب... قال تعالى: ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾** ﴾ [المائدة: ٥٠].

أما إن كانوا غير مسلمين فيُقال لهم: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾** ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فالمتطرف هو الذي يحيد عن الإسلام، إفراطًا وتفريطًا،

والتخلف ليس من دين الله في شيء ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

والمؤمن القويّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، والطب والهندسة والزراعة هي من فروض الكفاية عندنا، والعلوم النافعة تُؤخذ من كل من أفلح فيها، وواقع المسلمين لابد وأن يُقاس بمقياس الكتاب والسُّنَّة، فإن اعتبروا رجوعنا لمثل ما كان عليه رسول الله ﷺ رجعية، قلنا لهم تُهمة لا ننفيها وشرفٌ لا ندَّعيه.

فهذه هي الطائفة الناجية الظاهرة المنصورة، ولا يحلّ لنا حتَّى وإن كنَّا في القرن المئة، أن نُغيّر ولا أن نُبدّل في دين الله ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥].

إنَّ هذا الدين يأمر أهله بإقامة حضارة على منهاج النبوّة، وبالأخذ بأسباب التطور والتقدّم مع مراعاة واجب العبودية وطاعة الوقت، فلا مانع من صُنع السيارة والطائرة والصاروخ، ولا حرج في بناء المدرسة والمستشفى والملجأ،

ولا بأس بالانتفاع بوسائل التكنولوچيا والاتصالات والبث العصرية.. وكل ذلك لما استُخدم له، فإن استُخدم في أمر صالح كان صالحًا، وإن استُخدم في أمر فاسد كان فاسدًا، فالأصل في المعاملات الإباحة إذا رُوعيت ضوابطها الكلية.

فلا تعني الحداثة والتطوير والتنوير ومجاراة العصر أن نفرط في ديننا، أو أن نبتدع في شرع الله ما ليس منه، أو أن نستهزأ باللحية ونستخف بالنقاب، فلابد من تعظيم لشعائر الله ﴿**ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢].

ولا معارضة بين إطلاق اللحية وركوب الطائرة، ولا بين تقصير الثوب وصنع الصاروخ، ومن أراد من المتدينين الملتزمين أن يجمد على وسائل التطور الأولى، نقول له لا تحجر واسعًا، ودرْ مع إسلامك حيث دار، فلا تحريم للحلال ولا تحليل للحرام، «**وإذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة** (زرعة أو غرسة) **فإن استطاع أن لا تقوم حتَّى يغرسها فليغرسها، فإنَّ له بذلك أجر**».

فهل يتفق معنا دعاة التطور والتحضر والتقدم والتنوير والحداثة على هذا المفهوم، أم أنهم يقصدون من وراء ذلك الانسلاخ من دين الله، وأخذ النجاسات الموجودة في أمعاء الغرب والشرق، وبيع الدين بالدنيا ... إذا كان هذا هو ما يريدونه وما يطلبونه، قلنا لهم ﴿ **أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ** ﴾ [البقرة: ٦١].

هذا فراق بيننا وبينكم، فالإيمان هو الضياء والنور والخير والحياة الحقيقية ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

والأمور كلها على ما عند ربك، والمسائل لا تُؤخذ بالادعاء، فالظلاميّ هو من أعرض عن نور الإيمان، والمتخلف هو من ترك دينه وراءه ظهريًا، والرجعيّ هو من أرادها جاهلية جهلاء، وما تأخرت الأمة وصارت إلى وراء إلاّ يوم أن أعرضت عن كتاب الله وعن سُنَّة رسول الله ﷺ.

فعودوا إلى دين ربكم عوداً حميداً، يعُد لكم عزَّكم

ومجدكم الغائب المفقود، فإن أبيتم إلاَّ الجري وراء كل ناعق وزاعق، فلن تضروا إلاَّ أنفسكم، ولن تضروا الله شيئًا، والله غالب على أمره ومتم نوره ولو كره الكافرون.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

آفة الترف

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد :

فالترف مادة هلاك للأفراد والدول والجماعات، وهو عبارة عن نعمة تورث طغيانًا وكفرًا، ويصاحبها البطر والظلم، والنعمة تنقلب إلى نقمة في حق البعض، بسبب عدم تأدية شكرها، قال تعالى: ﴿ **سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥)** ﴾

[القلم: ٤٤، ٤٥].

قال العلماء: يسبغ عليهم نعمه، ويمنعهم شكرها، وقالوا: كلما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة فيزدادون بها أشرًا وبطرًا، وغرورًا وكبرًا، حتَّى ينسون ربهم ودينهم وأنفسهم ﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ**

﴿ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

والمال والسلطان والجاه والصحة والقوة من نعم الله على الخلق والعباد، وبدلاً من أن نزداد بها طاعة وعبودية لخالق الأرض والسماوات، تستخدم أحيانًا في مبارزة الله بالحرب ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) ﴾ [العلق:٦ – ٨] .

ولم يُذكر الترف إلاَّ في موضع الذم، ومن تتبع السُّنن والسِّير ونظر في النصوص الشرعية التي تناولت ما فعله المترفون وما فُعل بهم عَلِمَ ضرر هذه الآفة، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، والملأ هم الأشراف والقادة والرؤساء الذين أنكروا البعث والحساب، وسّع عليهم سبحانه نِعَم الدنيا، حتَّى بَطِروا وصاروا يؤتون بالتُرْفة، وكان منهم الإعراض عن دعوة الأنبياء والمرسلين.

وفي نفس السورة يقول جلَّ وعلا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ (٦٥)﴾ [المؤمنون: ٦٤، ٦٥]، يعني حتَّى إذا جاء مترفيهم وهم المنعَّمون في الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ أي يصرخون ويستغيثون كما قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا (١٢)﴾ [المزمل: ١١، ١٢]، وقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ(٣)﴾ [ص: ٣].

وقوله: ﴿لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ﴾ أي لا يجيركم أحد مما حلَّ بكم سواء جأرتم أو سكتّم، لا محيد ولا مناص، ولا وزر، لزم الأمر ووجب العذاب، ثم ذكر أكبر ذنوبهم، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦)﴾ [المؤمنون: ٦٦] أي إذا دُعيتم أبيتم، وإن طُلبتم امتنعتم ﴿ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢)﴾ [غافر: ١٢]، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ﴾، يعني

بالسيف يوم بدر، قاله ابن عباس، وقال الضحاك: يعني بالجوع، حين قال النَّبيُّ ﷺ: «**اللهم اشدد وطأتك على مُضَر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف**» فابتلاهم الله بالقحط والجوع، حتَّى أكلوا العظام والميتة والكلاب، والجيف وهلك الأموال والأولاد.

وقد قُتل يوم بدر بعض صناديد قُريش كأبي جهل وعُتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وقد كان لقريش مكانة كبيرة وسط العرب، وقد ناصبت النَّبيَّ ﷺ العداء، وكان لسادتها وأشرافها الحظ الأكبر من الصد عن سبيل الله، وبلغ بهم الأمر أن قالوا: نحن أهل الحرم، فلا نخاف. واعتقدوا أنَّ لهم أعظم الحقوق على الناس والمنازل، فاستكبروا، وليس الاستكبار من الحق، كما أحدث لهم سماع الآيات كبراً وطغياناً.

وقال تعالى: ﴿**وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ**

﴿دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥]، والمقصود مدائن كانت باليمن قتلوا أنبيائهم فسُلط عليهم بختنصر، فقتل وسبى، وهذا توبيخ وتقريع لهم ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ أي لا تفروا ﴿وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ أي إلى نعمكم التي كانت سبب بطركم، وإنما أترفهم الله عز وجل كما قال: ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٣]، ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ عما نزل بكم من العقوبة فتُخبرون به، أو أن تُؤمنوا كما كنتم تسألون ذلك قبل نزول البأس بكم، قيل لهم ذلك استهزاءً وتوبيخًا.

وقد بيّنت النصوص إجرام المترفين، قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [هود: ١١٦]، كما أوضحت كفرهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ: ٣٤].

وهم مقلدة لا عقل لهم ولا دين عندهم، أواخرهم كأوائلهم ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣].

وقد بيّن سبحانه حالهم في الدنيا فقال: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء: ١٦]، لم يُهلك ربنا القرى قبل ابتعاث الرسل، وهذا وعدٌ منه سبحانه، ولا خلف في وعده فإذا أراد إهلاك قرية أمر مترفيها بالفسق والظلم فيها، فحقَّ عليها القول بالتدمير، وقُرأت ﴿ أَمَرْنَا ﴾ بالتخفيف وبالتشديد، أي أمرناهم بالطاعة إعذاراً وإنذاراً وتخويفًا وعيداً، وبالتشديد ﴿ أَمَّرْنَا ﴾ أي جعلناهم أمراء، والمعنى بعثنا مستكبريها، ففسقوا فيها.

وفي الصحيح من حديث زينب بنت جحش زوج النَّبيّ ﷺ قالت: خرج رسول الله ﷺ يومًا فزعًا محمرًا وجهه يقول: **لا إله إلاَّ الله، ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**» وحلَّق بأصبعه الإبهام والتي تليها، قالت: فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثر الخبث**».

فالمعاصي إذا ظهرت ولم تُغير كانت سببًا لهلاك الجميع، وإذا كان هذا هو حال المترفين في الدنيا، فحالهم

في الآخرة معلوم، قال تعالى: ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) ﴾ [الواقعة: ٤١ – ٤٥].

لقد كان قوم نوح وعاد وثمود من جملة المترفين كما قاد الترف فرعون إلى هلاكه وحتفه، فقد أطغاه ملكه حتَّى قال: ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ [الزخرف: ٥١]، فأجراها سبحانه من فوق رأسه جزاءً وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد، وأورث المال قارون بغيًا وظُلمًا وعدوانًا. ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [القصص: ٧٦] وبدلاً من أن يشكر المُنعم سبحانه قال: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ [القصص: ٧٨]، ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ﴾ [القصص: ٨١]، وكان هذا هو جزاؤه، فالكبرياء والعظمة لا تليق إلاَّ بالله جلَّ وعلا.

أما العبد الذي خرج من مجرى البول مرتين، فلا يليق به إلاَّ التواضع، وبينما عبد يسير متبخترًا، إذْ خسف الله به الأرض، فهو يتململ فيها إلى يوم القيامة، وفي الحديث:

«الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما، قصمته ولا أُبالي».

وقد ضُرب المثل في كتاب الله بالوليد بن المغيرة، وهو الموصوف بالوحيد ﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدوداً (١٢) وَبَنِينَ شُهُوداً (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (١٧)** ﴾ [المدثر: ١١ - ١٧]، وقد خُصَّ الوليد - والد خالد - بالذكر لاختصاصه بكفر النعمة، وإيذاء الرسول ﷺ، وكان يُسمى الوحيد في قومه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الوليد يقول: أنا الوحيد بن الوحيد، ليس لي في العرب نظير، ولا لأبي المغيرة نظير، وكان يُسمى الوحيد.

وقد ذكر سبحانه نعمه عليه وأنه أمدَّ له في المال والبنين، وأنه بسط له في العيش بسطًا، حتَّى أقام ببلدته مترفهًا يرجع إلى رأيه، ومع ذلك فلم يؤمن، بل ازداد غيًا وكفرًا، فلم يزل بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتَّى هلك.

ليس من الترف أن يكون النعل حسنًا، والثوب حسنًا، أو أن يتلذذ الإنسان بالطيبات والمباحات، فيكون مركوبه ومسكنه مناسبًا، أو أن يُنفق على نفسه وأهله النفقة العرفية اللائقة به تبعًا لإعساره ويساره، لا حرج في ذلك كله، ولا يسعنا تحريم الحلال، قال تعالى: ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ونعم المال الصالح للعبد الصالح، وكان سلفنا الصالح إذا وجدوا أكلوا أكل الرجال وإذا افتقدوا صبروا صبْرَ الرجال.

وكان النَّبيُّ ﷺ يُعجبه الكتف من اللحم، وارتدى حُلة حمراء، وقد جهّز عثمان بن عفان رضي الله عنه جيش العسرة، وحفر بئر رومة، وكان عبد الرحمن بن عوف من أغنى أغنياء المدينة.

وقال البعض: كل ما لم يلهك عن طلب الآخرة فليس بمتاع غرور، ولكن متاع بلاغ إلى حين.

وقال الآخر: كيف لا أُحبُّ دنيا قُدِّر لي فيها قوتي،

أكتسب به حياة وأدرك بها طاعة أنال بها الجنة، وقالوا: نعمت الدار الدُّنيا كانت للمؤمن، وذلك أنه عمل قليلاً وأخذ زاده منها إلى الجنة، وبئست الدار كانت للكافر والمنافق، وذلك أنه ضيع لياليه، وكان زاده منها إلى النار.

وليس الزهد كما قال أبو حازم بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يد نفسك، وأن تكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تُصبْ بها سواء، وأن يكون مادحك وذامك في الحق سواء.

لا بأس بشيء من المزاح والبسط والتنعم المباح، كما قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإنها إن كلَّت عميت».

وكانت الحبشة تلعب بالحراب في المسجد، ويقول لهم النَّبيُّ ﷺ: «**دونكم بني أرفدة**»، وكانوا يلعبون في يوم العيد.

ولكن لا ينبغي أن تصبح الحياة لعبًا، أو أن يغلب المزاح والترفه على الإنسان بحيث يُنسيه ربه ودينه، وقد عاتب

سبحانه الصحابة في شيء من ذلك لما هاجروا إلى المدينة، ونزل قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** (١٦) ﴾ [الحديد: ١٦] قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلاَّ أربع سنين» [رواه مسلم].

قال الحسن: «استبطأهم وهم أحب خلقه إليه»، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «فجعل ينظر بعضنا إلى بعض، ويقول: ما أحدثنا؟».

وروي أنَّ المزاح والضحك كثر في أصحاب النَّبيّ ﷺ لما ترفهوا بالمدينة، فنزلت الآية، ولما نزلت قال ﷺ: «**إنَّ الله يستبطأكم بالخشوع**» فقالوا عند ذلك: خشعنا.

وقال محمد بن كعب: كانت الصحابة بمكة مجدبين، فلما هاجروا أصابوا الريف والنعمة، ففتروا عما كانوا فيه، فقست قلوبهم، فوعظهم الله فأفاقوا.

لابدَّ من سدِّ الذرائع التي تئول بالبلاد والعباد إلى الترف

المذموم الذي يجر إلى الذنوب والمعاصي، ويُورث دماراً وهلاكًا، وهذا يتطلب منَّا العودة الصادقة لكتاب الله ولسُنَّة رسول الله ﷺ علمًا وعملاً واعتقاداً، وأن نبذل وسعنا في معاني التقدم والتحضر والتطور، وفق منهج العبودية، بحيث نُقيم حضارة على منهاج النبوة، فالنعمة لا تطغينا، والمصيبة لا تجعلنا نيأس ونقنط من رحمة الله، وأن نواجه النعم والغنى بالشكر، والفقر بالصبر.

وقد سُئل الإمام أحمد: أيكون الإنسان ذا مال وهو زاهد؟، قال: نعم، إن كان لا يفرح بزيادته، ولا يحزن بنقصانه.

فأخرجوا الدنيا من قلوبكم وضعوها في أيديكم ﴿ **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ(١٩٧)** ﴾ [البقرة: ١٩٧].

إنَّ السفر طويل، والبحر عميق والعقبة كئود والناقد بصير ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣)** ﴾ [الفرقان: ٦٣]،

فاخشوشنوا، فإنَّ النعمة لا تدوم، وإياكم والتنعم، فإنَّ عباد الله ليسوا بالمتنعمين، وكلنا موقوف به، ومسئول بين يدي من لا تخفى عليه خافية، ثم لتُسئلن يومئذ عن النعيم، واعلموا أنكم لن تروا من الخير إلاَّ أسبابه، ولن تروا من الشر إلاَّ أسبابه. الخير بحذافيره في الجنة، والشر بحذافيره في النار، والدنيا عرض حاضر، يأكل منه البر والفاجر، والآخرة وعد صادق، يحكم فيها ملك قاهر، ولكل دار بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

فهرس

المقدمة ٣
أمن مستقبلك ٩
أولَم يتفكروا ٢٣
خذوا ما آتيناكم بقوة ٣٥
فساد الانتهاء من فساد الابتداء ٤٨
كشف الهيئة ٦٠
تربية القادة لا تربية العبيد ٧١
إدارة الأزمات ٨٤
جلد الذات ١٠٠
شهادة حسن السير والسلوك ١١٣
تفجير الطاقات الكامنة ١٢٦
كلمة أبرك من عشرة ١٤١
سماحة الإسلام بعيداً عن الإفراط والتفريط ١٥٢
التدين والالتزام ١٦٥
آفة الترف ١٧٩
الفهرس ١٩٢